إعجاز القرءان

خضر محجز

إعجاز القرآن

نظرات في تذوق النص وإعجازه

اسم الكتاب: إعجاز القرءان
اسم المؤلف: خضر محجز
تصميم الغلاف: حذيفة خضر محجز
الناشر: مكتبة المكتبة
بلد النشر: غزة
الطبعة الأولى: 2011
الطبعة الثانية: 2012
مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى روح من حبب إليّ القرءان منذ صغري، فحملني على تعلمه وتلاوته، والدي رحمه الله، الذي ما أحب شيئاً في حياته كما أحب العـــدل والحـــق والجمال. راجياً من ربي العفو الودود أن يغفر له ويرفع درجاته ويجعل ثواب هذا في ميزان حسناته.

والفاتحة إلى روحه في مثواها.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. الحمد لله الذي أقدر على هذا، وإنه على تقدير خير منه لقدير.

أما بعد،

ففي هذه الوريقات أقول ما يمكن لمثلي أن يقوله في إعجاز القــرآن؛ فهذا طوقي الذي هو فعل البشر الناقص في وصف الكلام التام. حاولــت فيه أن أتلمس مواطن الإعجاز القرآني في بعض السور والآي، وأشــير إلى ما تيسر لي معرفته من مواطن الجمال فيه. لكن بقي شــيء جــدير بالقول في هذا الميدان وهو: أن سر الإعجاز ــ كما هو في حقيقة الأمر ــ شيء قد لا يطوق البشر الوصول إلى وصفه تحديداً. كيف، وهو كلام رب العالمين، الذي لا يمكن نعته، كما أشار إلى ذلك الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي قدس الله سره!.

ولعل أهم سر من أسرار هذا الإعجاز، كامنٌ في سلطان هذا الكتــاب على القلوب: قلوب العامة وقلوب الخاصــة، قلــوب العــارفين وقلــوب الغافلين، قلوب المؤمنين وقلوب المنكــرين، قلــوب الدارســين وقلــوب الأميين. فكل له فيه طريق وملاذ. ولطالما رأيت جباه المنكرين تعني لهذا

القول الكريم، وألسنتهم تقر بفصاحته، ثم لا يستطيعون تفسير ذلك مما تعودوا على قوله في شؤون الدين الأخرى. أفليس هذا من الإعجاز؟.

لكن أجمل ما رأيت من آيات إعجاز هذا التنزيل العزيز، هو الطريقة التي يتلقاه فيها بسطاء المؤمنين من الأميين. فأنت ترى الواحد منهم لا يفهم كلام دارسي الفصاحة، من الشعراء وأرباب الكلام، بل ربما اتهمهم بالخرق، وقلة العقل والرطانة، والحاجة إلى تقويم ما اعوجّ من ألسنتهم. حتى إذا ما استمع لهذا القرآن، همد صوته، وارتخت جوارحه، ورأيت عينيه تفيضان من الدمع مما عرف من الحق، ولسان حاله يقول: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهين.

وإن أنس لا أنسى صورة والدي العزيز ــ يرحمه الله ــ وهو يحملني إلى مدرسة تحفيظ القرآن، في ستينيات القرن المنصرم، لأتعلم القرآن؛ ثم يعود من آخر النهار من عمله إلى البيت مكدوداً، فيوقد مصباح الكاز، ويقول لي: اقرأ. فأقرأ. فيستمع بكل كيانه، ثم يبكي بدموع لو نزلت على الصخر الصلد لشقته. فكيف فهم هذا الرجل الأمي حقائق التنزيل، حتى كأنها نزلت على قلبه، فأبكت عينيه؟. الله وحده هو الذي يعلم كيف. لكنني أعلم لماذا حدث ذلك، ثم لا أستطيع وصفه. لقد أدرك الرجل البسيط هذا الكلام وفهمه تماماً، بما لا يستطيع أمثالي فهمه. ألم يقل رب العزة: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾(القمر/17).

نقرأ القرآن وندرسه. ويسمعه الآخرون فيخرون للأذقان ويزيدهم خشوعاً. فاللهم اجعلنا من الآخرين. وارزق قلوبنا فهم آياتك والإخبات

إليها. واختم لنا بما ختمت لنبيك **r** وآل بيته الطاهرين. واجمعنـــا بهـــم، ببركة حبنا: فقد يجمع الله المرء مع القوم يحبهم ولما يلحق بهم.

وصل اللهم على سيدي ومولاي وتاج رأسي محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الأول
القرآن والإعجاز

أولاً: القرآن: محاولة للتعريف:

القرآن هو في الأصل مصدر على وزن (فُعلان) بضم الفاء، كغفران وشكران. ومعناه هو القراءة. من قرأتُ، أي تَلَوْتُ. كما جاء في قوله تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾(القيامة/17ـ18).

وقيل هو من قرأتُ الشيء، أي جَمَعْتُ بعضهُ إلى بعض. قال عمرو بن كلثوم:

تُرِيكَ إذَا دَخَلْتَ على خَلاء وَقَدْ أمِنَت عُيُونَ الكاشِحِينا
ذِرَاعَىْ عَيْطَلٍ، أدْماءَ، بِكْرٍ هِجَانِ اللّوْن، لَمْ تَقْرَأ جَنِينا

أي أن الناقة لم تضم داخلها جنيناً قبل ذلك.

وكأن قائل هذا القول نظر إلى هذا الإبداع العظيم، في جمع الآيات بعضها إلى بعض، وفق هذا النظم المعجز الخلاب، رغم كونها نزلت مفرقة منجمة متباعدة.

ونحن نذهب إلى أن المقصود بالقرآن كلا المعنيين؛ نظراً لأن كتاب الله يتميز عن سائر الكتب بأنه مقروء لذاته، متعبد بكلماته[1]، مجموع بعضه إلى بعض جسداً واحداً، كأنه نزل مرة واحدة: لا تحيف قراءته على تأويله، ولا يجور ضمُّ آيهِ على تنوع حوادث تنزيله. وبالجملة: فجمال نظمه لا ينتقص من باهر معانيه. كما أن كمال معانيه لا يأتي على حساب روعة بيانه: فهو متناه في الجمال والجلال كليهما.

هذا وقد صارت كلمة (القرآن) عَلَماً شخصياً، يُطلق بالاشتراك اللفظي: تارة على مجموع الكتاب، وأخرى على الآية منه، أو السورة الواحدة، أو العدد من الآي أو السور. يقول تعالى: ﴿وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرحمون﴾(الأعراف/204).

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله:

"روعي في كونه قرآناً كونه متلواً بالألسن؛ كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام. فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين، لا في موضع واحد: أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً؛ أن تضل إحداهما، فتذكّر إحداهما الأخرى. فلا ثقة لنا بحفظ حافظ، حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل، على

1ــ حتى قبل الوصول إلى تأويل معناه.

هيئته التي وُضع عليها أول مرة؛ ولا ثقة لنا بكتابة كاتب، حتى يوافق ما هو عند الحفاظ، بالإسناد الصحيح المتواتر"[1].

وقد توخت كل محاولات تعريف القرآن تقريب معناه، وتمييزه عن بعض ما عداه، مما قد يشاركه في الاسم، ولو توهماً؛ أو بعبارة أخرى: فإن كل تعريف للقرآن وضعه العلماء كان يبغي الجمع والمنع: جمع كل ما يقع من مفردات التعريف داخله، ومنع ما يمكن له أن يشبهه من سواه منه: فهو إدخال من جهة، وإخراج من أخرى: إذ ندخل في التعريف ما هو من القرآن، ونخرج منه ما ليس منه.

فلا جرم أن قالوا إن القرآن هو: كلام الله، المنزل، بلفظه، على نبيه محمد **r**، المتواتر نقلاً، المتعبد بتلاوته، المحفوظ بين دفتي هذا المصحف، الذي نتداوله اليوم بين أيدينا، ويبدأ بسورة الفاتحة ويختتم بسورة الناس، وبينهما مائة واثنتا عشرة سورة.

1. ففي قولهم: (كلام الله) إخراج لما سواه من كلام المخلوقين. فهو ليس مجرد كلام، بل هو كلام من لا كلام ككلامه.
2. وفي قولهم: (منزّل) إخراج لكلام الله الذي استأثر الله به لنفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به. فليس كل كلامه سبحانه منزلاً.
3. وفي قولهم: (بلفظه) إخراج للحديث القدسي، الذي أنزل الله معناه على نبيه **r** وصاغه النبي **r** بلفظه، ثم نسبه إلى الله.
4. وفي قولهم: (على نبيه محمد **r**) إخراج لما أنزله سبحانه من كلامه على أنبيائه السابقين، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وغيرها.

1ــ النبأ العظيم. ص12ــ13.

5. وفي قولهم: (المتواتر نقلاً) إخراج لما قيل إنه قرآن، بينما هو من قراءة الآحاد.
6. وفي قولهم: (المحفوظ بين دفتي المصحف) إخراج لما زعمته بعض الفرق من وجود مصحف لعلي أو فاطمة ــ عليهما السلام ــ يختلف عن هذا المحفوظ بين أيدينا.
7. وفي قولهم: (المتعبد بتلاوته) إخراج لما كان من القرآن ثم نُسخت تلاوته من بعد، وإثبات لما نسخ حكمه وبقيت تلاوته.
8. وفي قولهم: (المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس) إخراج لما قيل عن وجود مصاحف لبعض آحاد الصحابة **y**، مما يخالف هذا المصحف في ترتيب سوره، أو زيادة بعضها[1].

ثانياً: مصطلح إعجاز القرآن:

كلمة (إعجاز) مصدر على وزن (إفعال)، كـ(إكمال)، و(إجمال). أي أعجز القرآن الناس إعجازاً. ومثاله: أجمل الرجل كلامه إجمالاً.

قال ابن منظور:

"أَعْجَزَه الشيءُ: عَجَزَ عنه.... ومعنى الإِعْجاز الفَوْتُ والسَّبْقُ، يقال: أَعْجَزَني فلان أي فاتني؛ ومنه قول الأَعشى:

فَذاكَ ولم يُعْجِزْ من الموتِ رَبَّه ولكن أَتاه الموتُ لا يَتَأَبَّقُ

وقال الليث: أَعْجَزَني فلان إِذا عَجَزْتَ عن طلبه وإِدراكه"[2].

---

[1] ــ من مثل ما قيل عن مصحف خاص لابن مسعود لا يحتوي على الفاتحة وسورتي الفلق والناس.

[2] ــ لسان العرب. مادة: عجز.

وفي المعجم الوسيط: "(أعجز) فلانٌ: سبق فلم يُدرَك. والشيءُ فلاناً: فاته ولم يدركه. ويقال: أعجزه فلان وصيره عاجزا، وفلاناً: وجده عاجزا"[1].

وإعجاز القرآن من باب إضافة المصدر إلى فاعله، حيث يقوم المصدر مقام الفعل، ويقدر المفعول به تقديراً يوافق سياق المعنى. فالمفعول به هنا هم كل الخلائق المكلفين بأجمع[2]، على مدى الدهور والأزمان. يقول تعالى: ﴿قُل لَئنِ اجتمعت الإِنسُ والجنُّ عَلَى أَن يأتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يَأْتُونَ بِمثله، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهِيرا﴾(الإسراء/88).

أما المعجزة، فهي "أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد نبي، تأييداً لنبوته، وما يعجز البشر أن يأتوا بمثله"[3].

* فالقرآن معجزة من وجهين:

1. أولهما أنه نزل على رسول الله **r** من السماء، بطريقة غير معهودة، لا يستطيع البشر أن يتصوروا حصولها، كنتيجة منطقية لأسباب ومقدمات دنيوية.
2. وثانيهما أن شواهده فيه من نفسه على أنه من عند الله، ولا يستطيع أحد أن يكذبها.

---

[1]ــ المعجم الوسيط. مادة: عجز.

[2]ــ ليس الملائكة من المكلفين لأنهم مفطورون على الطاعة، وليس لهم اختيار.

[3]ــ المعجم الوسيط. مادة عجز.

ثالثاً: الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر:

المعجزة ــ كما بينا ــ هي أمر خارق للعادة من عند الله، ولا تظهر إلا على يد نبي من عند الله. أما الكرامة، فرغم أنها أمر خارق للعادة من عند الله، إلا أنها تفترق عن المعجزة في ثلاثة أمور:

1. أن الكرامة تظهر على يدي ولي من أولياء الله الصالحين، لا على يدي نبي.
2. أن الكرامة لا تأتي لتتحدى كالمعجزة، بل تأتي تثبيتاً للولي وتأييداً له في ذات نفسه، وإشعاراً من الله بأنه معه وراضٍ عنه.
3. أن الكرامة تظل ــ في الغالب ــ مستورة عن الآخرين، يحرص الولي على كتمانها، في حين أن المعجزة تتأبى على الكتمان في سبيل التحدي.

إذن، فالكرامة أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد أحد أوليائه، لا لغرض التحدي، بل تأييداً للولي وإكراماً له. ويحرص الولي على ستره عن أعين الناس. أما السحر فيختلف عن كل من المعجزة والكرامة في مصدره: ففي حين أن كلاً من المعجزة والكرامة من عند الله، فإن السحر من عند الشيطان، لأنه ناتج عن استعانة الإنسي بالجني، ليعلمه ما يستطيع رؤيته مما لا يمكن للإنسان أن يراه. وهو في العادة مختلط بكثير من الكذب والفساد. ومن هنا فهو يجري على أيدي من لا خلاق لهم في الغالب. وقد "سُئل رسول الله r عن الكهَّان. فقال: ليسُوا بشيء. قالوا: يا رسولَ الله، إنهم يُحدِّثُوننا أَحياناً بشيء فيكون حقا. فقال رسولُ الله r: تلك

الكلمةُ من الحق يخطَفُها الجنِّي، فيقذِفُها في أُذن وَليِّه، فيخلطُون معها مائة كذبة"[1].

رابعاً: مراتب الإعجاز:

1. لقد تحدى القرآن الخلائق في البداية بأن يأتوا بمثله، فقال: ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله، إن كانوا صادقين﴾(الطور/34).
2. ثم لما بان عجزهم، تنزل بهم ــ كأنه يهون عليهم الأمر ــ فطلب ما هو أقل من ذلك، مكتفياً بعشر سور مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ. قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(هود/13).
3. وإذ أُلجم القومُ فلم يحيروا جواباً، فقد تنزل الله **U** بالتحدي إلى ما هو أقل من ذلك؛ مكتفياً بأن يأتوا بسورة واحدة مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ. قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(يونس/38).
4. فلما ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة، تضاهي هذه السور القرآنية الباهرة، فتكون مثلها إبداعاً وجمالاً وعلماً وكمال بيان؛ فقد نزل بهم التحدي إلى آخر درجة يمكن النزول إليها، واكتفى بأن يأتوا بسورة من مثله ــ لا سورة مثله ــ أي أنه اكتفى منهم بأن يماثلوا ما يمكن له أن يقاربه في وجه من الوجوه، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة/23).

---

[1] ــ متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة. انظر: جامع الأصول. ج5. الحديث رقم3074.

فـــ"انظر كيف تنزّل معهم ـــ في هذه المرتبة ـــ من طلب المماثل، إلى طلب شيء مما يماثل. كأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة العامة، بل حسبكم أن تأتوا فيه جنس المماثلة، ومطلقها، وبما يكون مثلاً على التقريب، لا التحديد. وهذا أقصى ما يمكن من التنزّل. ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً: فلم يجئ التحدي بلفظ (من مثل) إلا فـــي سورة البقرة المدنية"[1].

فالمراتب الثلاث الأولى من التحدي نزلت بمكة كما ترى؛ في حين أن المرتبة الرابعة ـــ وهي الأسهل فيما يظنون ـــ نزلت بالمدينة، على ما هو معلوم من كون سورة البقرة مدنية.

ثم انظر كيف وردت هذه الصيغة المخففة الأخيرة، مقرونة بأن قبـــل منهم الله أن يتخذوا من الشهداء من أعوانهم من شاؤوا، فيشهدوا أن مـــا أتى به الآتون قريب ـــ في إحدى النواحي البلاغية ـــ من مثل ما أتت به سورة من القرآن. لو كانوا يستطيعون!.

إذن فالمطلوب الآن من منكري سماوية هذا التنزيل، هو ســـورة مـــن مثل هذا القرآن. سورة واحدة مقاربة بعض الشيء يؤلفها بلغاء الكافرين. وهذا ما سنتناوله في موضوع الإعجاز.

---

[1] ـــ **النبأ العظيم. ص84.**

خامساً: شروط التحدي:

التحدي هو ادعاء عجز المتحدَّيْن عن الإتيان بالأمر المتحَدى به. ولا يكون التحدي تحدياً إلا إذا توفرت فيه الشروط الآتية:

1. الدعوى بالتميز على الآخرين: فلو ادعى شخص أنه قوي أو بليغ أو بارع، لما كان في ذلك أي تحدٍ لأحد، حتى يزعم أنه الأقوى بين الأقوياء، أو الأبلغ بين المتكلمين، أو الأبرع من كل المبدعين... إلخ.
2. الإعلان: فلو اكتفى المدعي بادعائه لنفسه أمام نفسه، لما كان في ذلك تحدياً، حتى يعلن على الملأ أنه كذلك، أو أنه مستعد لمنازلة من يدعي أنه أبرع منه، وهزيمته.
3. قبول التحدي: فلو أن شخصاً ادعى أنه أشعر الشعراء، في قوم لا يأبهون به، لما هو معروف لهم من كونه عيياً لا يحسن أن يتكلم بالكلام العادي، فلا يعتبر هذا تحدياً، لأنه يشبه إعلان حرب تطلقه دولة مثل (سلطنة بروناي) ضد الولايات المتحدة الأمريكية أو روسيا. وأنا زعيم بأن سلطنة بروناي لو أعلنت الحرب على أمريكا، لما فكرت أمريكا في تغيير مسار أسطول واحد من أساطيلها، بل لما نوهت الصحف الأمريكية بذلك الإعلان أيما تنويه.
4. وجود المشترك: بمعنى أن هؤلاء الذين يقع عليهم التحدي متوفرة لهم أسباب الرد ودواعيه، فهم يحاولونه فلا يستطيعون. أو ــ بمعنى آخر ــ لا بد من وجود قدر من البراعة لدى المتحدين في موضوع ما، فيتحداهم المتحدي فيما هم فيه بارعون، وما هم على الإتيان بمثله زاعمون. فلو تحدى شاعرٌ بطل العالم في الملاكمة، أن يأتي بقصيدة

من عيون الشعر، لما كان هذا تحدياً ذا بال، ولما حصل به الإعجاز؛ لأن هذا مثله مثل أسد يزأر بين الضفادع، مطالباً إياها أن تأتي بزئير كزئيره. إذ تستطيع الضفدع في المقابل مطالبته أن يغطس مثلها فـــي الماء فلا يخرج. ولو صح أن مثل هذا يكون تحـــدياً، لبطـــل معنـــى التحدي.

ولقد توفرت للمكذبين بسماوية هذا التنزيل جميع هـــذه الـــشروط: إذ توفرت فيهم الدواعي والأسباب، ووُجد المشترك. فنحن نعلم أنهم كـــانوا أبرع الناس في الكلام، حتى إنهم ظلوا حريصين على أن يحتفلوا بإبداعهم الكلامي سنوياً في المواسم، ثم تباروا في حفظ أجمل ما قالوه من شـــعر فسموه معلقات، ونقلوا أجمل ما قالوه من نثر، جيلاً بعد جيل، شفاهة قبل التدوين، ثم تدويناً خوف الضياع. ومع ذلك فلم يدع مدعٍ منهم أنه يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا الذي يزعم أنه سحر، يفرق بين الابن وأبيه، وبين المرء وزوجه؛ بل أقروا منصاعين بأن له حلاوة، وأنه يحطم مـــا تحته ويعلو وما يُعلى عليه[1].

سادساً: رد شبهة:

لكن بالإمكان أن يثور ثمة تساؤل يقول: من قال لكم بـــأن محـــاولات المعارضة لهذا القرآن لم تحدث طوال الزمن؟. ألم ترووا لنا نماذج مـــن معارضات كذاب اليمامة!. أليست هذه معارضات؟. ثم ما الـــذي يمنـــع

---

[1]ــ انظر: تفسير الطبري. ج29. ص98ــ99.

القول بأن ثمة معارضات أخرى، وُجدت وكُتمت وخاف أصحابها أو مروجوها من نشرها، بسبب قوة سلطة حكام المسلمين في ذلك الزمان؟.

وعلى هذا التساؤل يمكننا أن نقول ــ بعد الاستعانة بالله ــ ما يأتي:

سادساً/1: أما القول بأن ما قاله مسيلمة صالح للتدليل على وجود معارضة للقرآن، فأشبه بالهزل منه إلى الجد. إذ لا يعقل أن يعمد كل متقوّل إلى قول أي كلام، ثم يدعي أنه جاء بمثل هذا القرآن، أو بمثل سورة منه. ولو قال أحد بأن هذه الترهات تسامي بلاغة القرآن؛ إذن لصح أن السخافات التي يكتبها الكثيرون من متشاعري اليوم، هي في مستوى شعر محمود درويش. أو لصح أن يقال بأن كل ما كان يقال من الشعر في الجاهلية، هو في مستوى معلقة الملك الضليل، أو لامية العرب!. وإن ما تجده من الفرق بين كلام مسيلمة والقرآن لأكثر اتساعاً من كل ذلك.

وعلى العموم، فإن كذاب اليمامة لم يجرؤ على معارضة التنزيل العزيز، طوال حياة الرسول **r**؛ ربما لخشيته من أن يقارن أحدٌ ما يقول بما أتى به القرآن، فتكون فضيحة. ثم لما توفي رسول الله **r**، وبدا له أن أطماعه في الحكم من الممكن لها أن تتحقق، قرر أن يقول ما قال، لعل ما يقوله يساعد فعله ولو قليلاً. أما أن يقال بأنه كان جاداً في معارضة القرآن، وأن من حوله كانوا جادين في تصديقه، فأمر أبعد عن التصديق.

ولكنها المصالح الآنية، وطمع الدنيا، وشهوة الملك، والاستعانة بالعصبية القبلية العمياء[1].

نقل الطبري في تاريخه:

"عن عمير بن طلحة النمري عن أبيه؛ أنه جاء اليمامة، فقال: أين مسيلمة؟. قالوا: مه!. رسول الله؟. فقال: لا، حتى أراه. فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟. قال: نعم. قال: من يأتيك؟. قال: رحمن. قال: أفي نورٍ أو في ظلمةٍ؟. فقال: في ظلمة. فقال: أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق. ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر"[2].

ورغم ذلك فلا بأس من رواية بعض مما خرقه مسيلمة، ولو على سبيل الاستطراف بالملح. هذا إن كانت المخاريق الآتية تصلح ملحاً:

1. "والليل الأطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم".
2. "والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس".
3. "إن بني تميم قوم طهر، لقاح لا مكروه عليهم ولا إتاوة، نجاورهم ما حيينا بإحسان، نمنعهم من كل إنسان، فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن".

---

[1]ــ رغم أن مسيلمة ادعى النبوة إلا أنه كان أعلم بنفسه وما يقول. وقد وصف أقاويله هذه لعمرو بن العاص بما نصه: "إن محمداً أُرسل في جسيم الأمور، وأُرسلتُ في المحقرات". أبو سليمان الخطابي. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص56.

[2]ــ تاريخ الطبري. ج2. ص277.

4. "والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تمجعون".
5. "يا ضفدع ابنة ضفدع، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين".
6. "والمبذرات زرعا، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه"[1].

أرأيتك هذا الكلام مستطيعاً مناوأة القرآن، أو مقارباً مقامه!. أئذا قال أحدهم في معارضة معلقة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب مغادر ... بأرض السوافي بين معنٍ ومعبرِ
فأدنى الطريق المنثني نحو يمنةٍ ... قبيل اضطرارٍ للنزول بمحشرِ

يكون بهذا قد قال شعراً يستحق أن يوضع في مقام المعلقات! أم تعرض لنوع من التقليد البائس الذي يقيم الحجة عليه، أكثر مما يوجبها له!. ولعمري لقد أصاب الإمام الخطابي كبد الحقيقة، حين اعتبر كلام مسيلمة مجرد

"استراق واقتطاع من عُرْض كلام القرآن، واحتذاء لبعض أمثلة نظومه... [لأن على من تحدى خصمه في بلاغته] أن ينشئ له كلاماً جديداً، وأن يحدث له معنىً بديعاً، فيجاريه في لفظه، ويباريه

[1] ـــ تاريخ الطبري. ج2. ص276.

في معناه، ليوازَن بين الكلامين، فيُحكَم بالفَلَج لمن أربى منهما على صاحبه؛ وليس بأن يتحيّف من أطراف كلام خصمه، فينسف منه، ثم يبدل كلمة مكان كلمة، فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق، ثم يزعم أنه واقفه موقف المعارضين"[1].

سادساً/2: لا يمكن الزعم ــ وفقاً للطبيعة البشرية ــ بأن ما كان مستواه بالغاً هذا الشأو من البلاغة، من مقول البشر الذي يسامي القرآن، يمكن له أن يختفي كل هذا الاختفاء، خوفاً من حكام لم يثبت حرصهم على هذا القرآن، إلى درجة القدرة على منع تداول ما يخالفه، ولو بطريق السر. وذلك للأسباب الآتية:

1. أن الدول المعادية للإسلام كانت متوفرة آنذاك، وقادرة على حماية قائل هذا القول؛ بل مروجةً لقيله. وهذه دولة الروم ــ التي ما انفكت تحارب الدولتين الأموية والعباسية ــ حاضرة، ومتوفرة لها الأسباب لذلك، وحريصة عليه، فيما لو تم.
2. أن العديد من حكام المسلمين كانوا أضعف من منع نشر أخبار فضائحهم، التي كانت تجري خلف أسوار القصور. وأَنْ لو استطاعوا منع انتشار هذا لفعلوا. وها نحن نقرأ ــ على سبيل المثال ــ كيف تحول قصر الخليفة الأموي، الوليد بن يزيد بن عبد الملك، إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو. ثم نقرأ عن مبلغ استهتار هذا الحاكم بآيات الله؛ ما يجعلنا مستيقنين أن أمثاله ما كان لهم أن يتشرفوا بحراسة هذا القرآن من الضياع ــ لو كان ضائعاً ــ فضلاً عن منع

---

[1] ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص58.

انتشار معارضته، لو وُجدت مثل هذه المعارضة أصلاً. وإن شئت فاقرأ ما يقوله أبو فرج الأصفهاني في أحد هؤلاء الحكام[1].

3. من المعلوم لنا تاريخياً، أن بعض الملاحدة الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية هذه ــ وعلى مشهد من حكامها ــ قد وضعوا كتباً في نقض معاني القرآن، ومعارضة مقولاته العامة، دون أن يتعرض لهم أحد من هؤلاء الحكام بأذى. وهذا ابن الراوندي خير دليل على ذلك. فلو كان الحكام معنيين بالدفاع عن القرآن، إلى هذه الدرجة، إذن لمنعوا ابن الراوندي هذا من تأليف كتابه المعروف باسم (الدامغ)، بل لمنعوا أحداً من الناس أن يأتي على سيرة هذا الكتاب[2].

سابعاً: موضوع الإعجاز:

تكلم كثير من الناس في ماهية الشيء الذي أعجز القرآنُ الخلقَ فيه، حتى عجزوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: فذهب قوم إلى أن إعجازه كامن في إخباره بالمغيبات، وذهب آخرون إلى أن إعجازه ناتج عن الصِّرفة، فيما ذهب فريق آخر إلى القول بأن الإعجاز القرآني مرده إلى وجود هذه التشريعات الربانية فيه، في حين قال فريق رابع بأن الإعجاز راجع إلى بيان القرآن الرائع وبلاغته التي لا تُدرك، واليوم ظهر لدينا فريق خامس يرجع إعجاز القرآن إلى موافقته للعلوم المادية الحديثة.

فهذه أقوال خمسة في الإعجاز، جاء الآن من جمع بينها ــ مستثنياً الصِّرفة ــ وجعلها وجوهاً متعددة للإعجاز القرآني، فقال إنه معجز في

---

[1] ــ انظر: ملحق رقم1.

[2] ــ انظر: ملحق رقم2.

بيانه وتشريعه وعلومه وإخباره بالغيب. ونحن نحاول في هذه السطور مناقشة جميع هذه الأقوال، ثم اختيار ما نراه الأقوم إن شاء الله.

سابعاً/1: القرآن وخبر المغيبات:

لقد سبقت لله تعالى كتب سماوية مخبرة بالغيب، فهذه التوراة ــ التي بين أيدينا ــ تخبرنا بالكثير من الأمور الغيبية، سواء منها ما وقع قبل نزولها، أو ما وقع من بعدُ وتحقق بالفعل. ونحن نقتطف مادة من هذه التوراة، تبشر بميلاد عيسى u من العذراء، هذا نصها:

"اسمعوا يا بيت داود، أما كفاكم أن تُضجروا الناس؛ حتى تضجروا إلـٰهي أيضاً!. ولكن الرب نفسه يعطيكم هذه الآية: ها هي العذراء تحبل، وتلد ابناً، وتدعو اسمه عمّانوئيل"[1].

وهذا عيسى u قد أعلم بني إسرائيل ما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وذكر ذلك الإنجيلُ قبل أن يخبر به القرآن. ومعلوم لدى النصارى جميعاً أن عيسى u ــ في العشاء الأخير ــ قد أخبر حوارييه بأن بينهم خائناً سيسلمه إلى الأعداء، وقد ظهر فيما بعد أنه يهوذا الإسخريوطي. وفي هذا يقول إنجيل متى:

"وفي المساء جلس يسوع للطعام مع تلاميذه الاثني عشر. وبينما هم يأكلون قال يسوع: الحقَّ أقولُ لكم؛ واحد منكم سيسلمني. فحزن التلاميذ كثيراً، وأخذوا يسألونه واحداً واحداً: هل أنا هو يا سيدي؟.

---

[1] ــ أشعيا7. 13ــ15.

فأجابهم: من يغمس خبزه في الصحن معي هو الذي سيسلمني...
فسأله يهوذا الذي سيسلمه: هل أنا هو يا معلم؟. فأجابه يسوع: أنتَ قلت"[1].

ومع ذلك فإن الإنجيل لم يتنزل بالإعجاز، ولم يتحدَّ الناس أن يأتوا بمثله أو ببعضه، كما لم يتعهد الله بحفظه من التبديل والتحريف؛ ولذا فلقد أمكن لبعض أحبار بني إسرائيل أن يغيروا فيه الكثير. وإذا كان التغيير المستقر نوعاً من الإتيان بالمثل، فقد فعل أهل الكتابين بالتوراة والإنجيل الأفاعيل.

وعلى العموم، فنحن لم نجد أهل التوراة والإنجيل يدعون الإعجاز لكتابيهم، ولا أدعى لهم ذلك المسلمون. فعُلم أن الإعجاز أمرٌ يختص به القرآن. فالفرق بين القرآن والكتب السماوية الأخرى، أن الرسول **r** تحدى به العرب البلغاء، أن يأتوا بسورة واحدة تقاربه في شيء منه، فعجزوا. في حين أن موسى **u** قد تحدى قومه بمعجزاته المعروفة، من اليد البيضاء والعصا وغيرها، لا بالتوراة المنزلة. كما أن عيسى **u** قد تحدى أهل زمانه، بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها، لا بالإنجيل المنزل.

وإذا كان ذلك كذلك، فقد علمنا أن القرآن ــ من دون هذه الكتب السماوية ــ هو الذي دل بنفسه على نفسه، ونبع إعجازه من داخله، في حين أن كل كتاب من الكتب السماوية السابقة لم يدل على نفسه إلا بأمر

---

[1] ــ متى26: 31ــ35.

خارجي مؤيد له[1]. فهذا هو ميدان التحدي الذي أعجز الخلائق، فلم يطيقوه، مع توفر الأسباب والحوافز لديهم لمحاولته. وفي ذلك يقول رسول الله **r** :

"مَا مِن نبيّ من الأنبياء إلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مثلُهُ آمَنَ عليه البشر، وَإِنَّمَا كانَ الذي أُوتيتُهُ وَحْيا أوحاه الله إِليَّ ، فأرجو أن أَكونَ أَكثرَهُم تابعا يومَ القيامةِ"[2].

وإذا كانت السورة الواحدة من القرآن معجزة للمخلوقين، كما بينا في السابق؛ فقد علمنا أن ليس كل سور القرآن مما يخبر عن أمور غيبية، تتحدى قدرة البشر في العلم بها. ونحن إذا ما تمعنا في العديد من السور ــ القصيرة منها على وجه الخصوص ــ فلن نجد فيها، من الإخبار بالأمور الغيبية، ما يمكن أن يعتبر تحدياً للمخلوقين، مما في طوق مثلهم أن يعلمه، ثم لم يعلمه، عجزاً وضعف قدرة.

لا شك أن القرآن قد تحدث ــ في مجموعه ــ عن الغيب. لكن هل قدم لنا القرآن كل الغيب؟. لا أحد قال بهذا، لا في السابق ولا الآن. وإلا فماذا سيكون الشأن في الغيب الذي قد يكشف أستاره المخلوقون في المستقبل؟. أيمكن إذّاك الزعم بأنهم توصلوا إلى علمٍ لم يدركه القرآن، ففازوا في التحدي؟. يقول الإمام الخطابي رحمه الله في هذا الشأن:

---

[1]ــ انظر: أبا بكر الباقلاني. إعجاز القرآن. ص44ــ46.

[2]ــ متفق عليه من رواية أبي هريرة. انظر: جامع الأصول. ج8. الحديث رقم 6333.

"ولا يُشك في أن هذا ــ وما أشبهه من أخباره ــ نوع من أنــواع إعجازه. ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من ســور القرآن. وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكــون معجــزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها"[1].

سابعاً/2: القرآن والحقائق العلمية:

لا شك أن القرآن قد أشار إلى العديد من الحقائق العلمية، التي اكتشفها العلم الحديث فيما بعد. ولا شك أن عديداً من العلماء قد آمنــوا بــالقرآن، بسببٍ مما علموه من سبقه إلى هذه الحقائق. لكننا الآن نبحث في الإعجاز القرآني، لا في إثبات أن القرآن من عند الله. أي أننا نبحث في كنه هــذا الشيء الذي تحدى القرآن به المخلوقين، أن يأتوا بشيء يقارب ما جاءت به سورة واحدة منه. الأمر الذي يستدعي منا بيان أمرين:

1. أولهما: أن أي سورة من القرآن لم يقتصر حــديثها علــى الإخبــار بالحقائق العلمية: فلقد نرى الحقيقة العلمية، في الــسورة مــن ســور القرآن، وسط عديد من القضايا العقدية والتشريعية. كما أنه لا يمكــن لنا القول بأن كل سورة في القرآن، تخبر عن حقائق علمية سيكتشفها العلم ذات يوم. ثم أين تحدي الحاضرين بالإتيان بما لا يملك مثلهم أن يأتي بمثله، في زمنه؟. أو أين هو الشرط الرابع من شروط التحــدي التي ذكرناها آنفاً: أقصد المشترك بين المتحدي ومن أوقــع علــيهم التحدي؛ حتى يحاولوا الرد فلا يستطيعون؟. أم كان مطلوباً من عرب

[1] ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص24.

الجزيرة أن يكتشفوا كروية الأرض، حتى يقروا بعجزهم أمام القرآن حين قال: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾(النازعات/30). أم أن مثل هذه الآيات لا تعجز العرب، الذين توجه إليهم التحدي بلغتهم، وعلى لسان نبيهم r ؟!.

2. وثانيهما: أن القرآن مليء بالحقائق العلمية المادية. ولكنها لم تأت في معرض الإعجاز، لأنها جاءت في سياق حديث الهداية، لا حديث التحدي. انظر في قوله تعالى: ﴿ويومَ يُنفخ فِي الصُّورِ، ففزعَ منْ فِي السماواتِ ومنْ في الأرضِ، إلا من شاء الله. وكلٌّ أَتَوه داخرين۝ وترى الجِبال تحسبها جامدةً، وهي تمر مرَّ السحاب. صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء. إنه خبير بما تفعلون۝ من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها، وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون۝ ومن جاء بالسيئة، فكُبتْ وجوههم في النار: هل تُجزون إلا ما كنتم تعملون! ﴾(النمل/87ــ90).

ألا ترى أنه ذكر حركة الجبال بين النفخ في الصور والتحذير من الفزع الأكبر!. فهو يقدم هذه الصورة في سياق الدعوة إلى الإيمان، والتحذير من مغبة العناد!.

إننا نرى أننا هنا بين يدي حديث إقناع. وشتان ما بين حديث الإقناع وإعلانات التحدي!. فالأول شأنه التقرب والترقق في الحديث ومخاطبة العقل، في حين أن التحدي خطاب قائم على علاقات القوة، وإعجاز الخصم، وقهر الأدوات.

إن هناك أحاديث عن العلوم المادية في القرآن، ولكنها لا ترد في مقام التحدي. كما أنها لم ترد في كل سورة. وإن في القول بأن إعجاز القرآن

كامن في سبقه إلى الحقائق العلمية، نفياً لإعجاز كل سورة لا تقدم حقيقة علمية أو أكثر؛ مع أنها موضوع التحدي لكل المخلوقين، أن يأتوا بحديث يقارب مثلها.

كما يمكن لنا أن نتساءل عن كنه هذا الإعجاز العلمي في سورة كسورة الإخلاص!. أم هل يمكن الزعم بأنها تحتوي على إثباتات علميـــة، بـــأن الله I يتصف بالصمدية، قبل أن يتوصل المخلوقون إلى اكتشاف حقيقـــة ذات من لا تدركه الأبصار وتحار في الإحاطة به العقول!.

سابعاً/3: القرآن والتشريع:

لقد نزل القرآن بالعديد من التشريعات الجديدة، التي لم ترد في الكتـــب السابقة. كما أقر العديد من التشريعات التي وردت فيها. فلقـــد علمنـــا أن أمهات الشرائع موجودة في الكتب السابقة، وإنما جاء هذا القرآن بالتخفيف من إصر تشريعات مؤقتة، نزلت لزمن معلوم، أو لأمة محـــددة. وإنـــك لواجد مصداق ما قلناه في قوله تعالى:

﴿واختار موسى قَومَه سبعِين رجلاً لميقاتنا؛ فلما أخـــذتهم الرجفـــةُ قال: ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟. إن هي إلا فتنتك تُضل بِها من تشاء، وتهدي من تشاء. أنـــت ولينا، فاغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الغافرين۝ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة. إنا هدنا إليك. قال:عذابي أصيب به مـــن أشاء، ورحمتي وسعت كلَّ شيءٍ، فسأكتبها للذين يتقـــون ويؤتـــون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون۝ الذين يتبعون الرســـول النبـــيَّ

الأميَّ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: يـــأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالــذين آمنوا به، وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أُنزل معه؛ أولئك هم المفلحون﴾(الأعراف/155ــ157).

ويكاد يكون معلوماً لأكثر المتعلمين، أن الوصايا العشر المعروفة، في التوراة التي بين أيدينا، هي من أهم ما ورد من الشرائع الــسابقة. وهــذا نصها:

"لا تشرك بالله، لا تحلف باسمه كذباً، احفظ حرمة الــسبت، أكــرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد الزور، لا تــشتهِ امرأة غيرك، لا تشتهِ ما في يد غيرك"[1].

هذا وقد جاءت هذه الوصايا جميعها في ثلاث آيات من القرآن الكريم. يقول تعالى:

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: أن لا تــشركوا بـــه شـــيئا، وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحـــن نـــرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطـــن، ولا تقتلـــوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون۩ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولـــو

1ــ انظر: الخروج20. 1-17 والتثنية5. 6-21.

كان ذا قربي، وبعهد الله أوفوا. ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون۝ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيلِه. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾(الأنعام/151ــ153).

فقد رأيت أن القرآن ــ في هذه الآيات وفي غيرها ــ جاء بأفضل مما جاءت به التوراة. فهل ترى في قولنا هذا ما يشير إلى أن التوراة ليست من عند الله، لمجرد أن ما جاء بعدها هو أفضل منها؟. لا أظنك تعتقد هذا!.

فلئن علمنا بأن هذا لا يقول به مسلم؛ لنقولن إذن: إن فضل هذه الآيات على ما جاءت به الوصايا العشر، راجع إلى شيء آخر غير التشريع[1]؛ بل لمعنى آخر علينا أن نبحث عنه فيما وراء الأحكام. ولو شاء الله لهدى من شاء، من أوليائه، لكشف بعض أسرار هذا الإعجاز، في هذه الآيات الثلاث؛ وإن كنا لا نزعم أننا قادرون.

لا جرم أن قلنا سابقاً بأن الإعجاز، الذي نتحدث عنه في هذا المبحث، هو إعجاز السورة؛ لا إعجاز آيات ثلاث من سورة. ثم هل تحتوي كل سور القرآن على تشريعات، حتى تكون معجزة للمخلوقين!. ماذا إذن في سورة المسد ــ على سبيل المثال ــ من التشريعات: هل ورد فيها تحليل أو تحريم أو تفصيلُ حدٍّ أو منعٌ من ارتكاب مكروه؟. وقد علم القاصي والداني أن هذه السورة مكية، وأن تنزل التشريعات سوف يكون من بعد:

---

[1]ــ رغم إيماننا بأن تشريعات القرآن هي الأفضل: كونها سمحةً وأخيرةً وناسخةً وعامة للعالمين جميعاً.

في المدينة بعد الهجرة وقيام الدولة. وقد علمنا أن الإعجاز متوفر في القرآن كله مكيه ومدنيه على السواء.

فإذا تقرر لدينا أن سورة المسد ــ مثلها مثل أي سورة من القرآن الكريم ــ هي معجزة للمخلوقين جميعاً، فيجب أن نبحث عن علة أخرى لإعجاز هذا الكتاب العزيز، غير علة التشريع.

سابعاً/4: القرآن والصِّرفة:

ذهب النظّام ــ من المعتزلة ــ إلى أن العلة في إعجاز القرآن هي الصِّرفة[1]: فالله هو الذي صرف قلوب المخلوقين جميعاً، عن إبداء المحاولات الساعية إلى الإتيان بمثله. وعلى هذا القول، فإن معارضة القرآن بما هو مثله مقدورة لبعض المخلوقين وممكنة؛ لولا أن الله هو الذي صرف قلوبهم، وخذّل هممهم عنها. ولا شك في بطلان هذا القول، لأنه في الحقيقة إبطال لمفهوم التحدي، الذي لا يكون الأعجاز إلا معه. وقد بينا سابقاً أن من أهم شروط التحدي الصحيح وجود المشترك. انظر في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا﴾(الإسراء/88).

ألا ترى كيف حث الله الإنس والجن على التأهب والاحتشاد والتعاون والاتحاد، ليأتوا بمثل هذا القرآن؛ فلم يستطيعوا الرد بحديث واحد يقارب سورة واحدة منه!.

---

[1] ــ وهذا القول من النظّام لم يوافقه عليه تلميذه الجاحظ. انظر: النبأ العظيم. هامش ص86.

لقد انقطع كل بلغاء العرب قديماً، حتى ذهبوا إلى إغراء محمد r بأن يعطوه ما شاء، من متاع الدنيا والملك، مقابل أن يوقف هذا التحدي. فهل ذهبوا هذا المذهب وهم غير مكترثين بخطورة هذا القرآن على مصالحهم!. أم كانت دوافعهم النفسية للرد الكلامي عليه واهنة، إلى درجة اختيار طريق الحرب على طريق الكلام، فيضحوا بنفوسهم وأموالهم وأولادهم وأوطانهم، لمنع محمد r من تبليغ هذا القرآن، وهم يستطيعون أن يبطلوا نبوته بكلام هم أبطاله!. وهل كان الله سيتحداهم في ميدان هم فيه من العاجزين!. فأين الإعجاز إذن في تحدي القوي من هو دون الأطفال!.

إن القول بالصِّرفة يعني أن البلغاء من كفار العرب كانوا في الحقيقة قادرين على ذلك، لو لم تتدخل يد خارجية، فتمنعهم من النزول إلى حلبة، يقف الله فيها منتظراً خصومه. فليت شعري، هل يقول بهذا شخص يعرف مقدار عظمة الله، ومبلغ ضعف المخلوقين!.

ولو لم يكن عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن؛ راجعاً إلى كونه معجزاً بذاته، لكان ينبغي عليهم أن لا يتعجبوا من عجزهم عن مواجهته؛ بل كان عليهم أن يتعجبوا من "تغير حالهم، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً... أرأيت لو أن نبياً قال لقومه: إن آيتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة، وتُمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم. وكان الأمر كما قال؛ ممَّ يكون

تعجب القوم؟. أمن وضعه يده على رأسه، أم من عجــزهم أن يــضعوا أيديهم على رؤوسهم؟!"[1].

إذن لتعجب العرب من هذا الشلل الذي أصاب أيديهم، ولما تعجبوا من قدرة النبي على وضع يده على رأسه. وهكذا حال القرآن: فلو أنْ صرف الله قلوبهم عن الإتيان بسورة من مثله، لطرأ عليهم تعجــب مــن هــذا الطارئ الجديد، الذي تحداهم ثم منعهم من قبول التحدي. وبهذا لا يكــون القرآن معجزاً، بل النبي. ويكون عندئذ لا فرق بين ما جاء به محمد وما جاء به موسى، عليهما السلام.

ألم تر أن الله لم يصرف قلوب سحرة فرعون عن مواجهــة موســى بسحرهم، بل حاولوا وفشلوا، فثبتت النبوة لموسى **u** ولم يثبت الإعجاز لنصوص التوراة. وقد ذكرنا لك حديث رسول الله **r** : "مَا مِن نبــيّ مــن الأنبياء إِلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مثلُهُ آمَنَ عليه البشر، وَإِنَّمَا كــانَ الــذي أُوتيتُهُ وَحْيا أَوْحَاهُ الله إِليَّ ، فأرجو أن أَكونَ أَكثرَهُم تابعا يومَ القيامةِ"[2].

ثم ألم تر أن الله لم يصرف مسيلمة عن محاولة الإتيان بــسورة ــ أو سور ــ من مثله ففشل؟. ولو كانت الصِّرفة هي علة الانقطاع، لما حفظ لنا التاريخ نماذج من ترهات مسيلمة هذا، بل لما أقدره الله على هذا منــذ البداية.

---

[1] ــ عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص391.

[2] ــ سبق تخريجه.

سابعاً/5: الإعجاز البياني:

وإذْ علمنا ــ على وجه اليقين ــ أن التحدي قائم بسورة واحدة من مثل هذا القرآن؛ فقد نظرنا في سوره، فما وجدنا كل واحدة منها محتوية على إعجاز تشريعي أو غيبي أو علمي. ومن هنا فقد أصبح مقرراً لــدينا أن ميدان التحدي المقصود، هو ميدان آخر غير التشريع، أو الإخبار بالغيب، أو السبق إلى تقرير الحقائق العلمية الطبيعية والمادية. فما هو هذا الميدان إذن؟.

إن البلاغة القرآنية هي ميدان الإعجاز المقصود بالتحــدي، والقابــل للاستجابة فيما لو كان لدى القوم قدرة على خوض الغمار. وهذا هو مــا ذهب إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني، إذ يقول:

> "إن التحدي كان إلى أن يجيئوا ــ في أي معنى شاؤوا من المعاني ــ بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف، أو يقرب منه: يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾. أي مثلــه فــي النظم، وليكن المعنى مفترى لما قلتم. فلا إلى المعنى دُعيتم، ولكن إلى النظم"[1].

وهذا ما نذهب إليه إن شاء الله تعالى. مع أننا نقر تماماً بإعجاز القرآن في النواحي الأخرى ــ العلمية والغيبية والتشريعية ــ لكن بالنظر إلــى الكتاب العزيز كله، لا بعضه أو سورة منه. ناظرين في ذلك إلى أمرين:

---

[1] ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص141.

1. أن إعجاز القرآن البياني متوفر وحادث في كل سورة منه، كبرت أم صغرت.
2. أن هذا هو ما كان يحسنه العرب الأوائل، الذين توجه إليهم التحـــدي أول مرة. فقد كان في القوم الكثير من الـــشعراء والبلغـــاء وأربـــاب الفصاحة، ورغم ذلك فلم يدّعِ أحد منهم أنه عليم بكل أخبار الماضين أو اللاحقين، أو متقدم في العلوم الطبيعية على سائر الأمم، أو يباهي الناس بتشريعاته القانونية الفذة؛ حتى يتحداه القرآن فيما يحسن من هذا العلم أو ذاك.

إذن فخطاب الإعجاز المتوجه إلى الكافرين ــ بالأمس واليوم وغداً ــ هو البيان والفصاحة، ودقة التصوير، وجمال التأليف. وإلى مثل هذا ذهب المرحوم سيد قطب حين قال:

"كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ؟. وكيف اجتمـــع على الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون سواء؟. بعض البـــاحثين في مزايا القرآن ينظر إلى القرآن جملة ثم يجيب. وبعضهم يـــذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً أخرى يستمدها من موضـــوعاته ــ بعد أن صار كاملاً ــ من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكـــان، ومن إخبار عن الغيب يتحقق بعد أعوام، ومن علوم كونية في خلق الكون والإنسان.

ولكن البحث على هذا النحو إنما يثبت المزيّة للقرآن مكتملاً. فمـــا القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علـــوم، ولا تجمع ــ بطبيعة الحال ــ كل المزايا المتفرقة في القرآن؟. إن هذه السور القلائل قد سُحر العربُ بها منذ اللحظة الأولـــى، وفـــي

وقت لم يكن التشريع المحكم، ولا الأغراض الكبرى، هي التي تسترعي إحساسهم، وتستحق منهم الإعجاب. لا بد إذن أن تلك السور القلائل كانت تحتوي على العنصر الذي يسحر المستمعين، ويستحوذ على المؤمنين والكافرين...

يجب أن نبحث إذن عن منبع (السحر في القرآن) قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل العلوم الكونية، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله... لا بد إذن أن السحر ... كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية. لا بد أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده"[1].

أما نحن، فهل نطمع في تبيان بعض من هذا (السحر المعجز) في بلاغة القرآن؟. وهل نملك الأدوات اللازمة لدخول هذا المعترك؟. اللهم لا. ولكن منذ متى انقطعت أطماع الناس عن محاولة ما لا يستطيعون!. وهل أنا إلا بشر يُعمِل أدواتٍ كليلةً؛ طمعَ أن يدركه التوفيق!. وما أدراك، فلعل الله يأذن لي أن أضيف شيئاً. أما إن كانت الأخرى، فالذنب ذنبي، وأنا الذي ركبت مراكب ما كان لمثلي أن يطمع في ركوبها.

وإذ تقرر لدينا أن ميدان الإعجاز هو السورة الواحدة من القرآن؛ فلقد يمكن لنا الآن أن نستأذنك، أيها القارئ العزيز، بالتعريج على وجه من وجوه إعجاز القرآن بمجموعه. وما كان لنا أن نفعل ذلك ــ بعد أن قررنا

---

[1] ــ التصوير الفني في القرآن. ص17ــ19.

ما قررناه ــ إلا لأننا لم نر أحداً تناوله من قبل، متوكلين على صـــاحب الحول والقوة. إنه على ما يشاء من منح ذلك لعبده لقدير.

الفصل الثاني
إعجاز القرآن في مجموعه

أولاً: في جمعه وترتيبه:

مات رسول الله r بعد أن أكمل الله الدين، وأتم نزول الكتاب. فكان القرآن محفوظاً في صدور الصحابة y، مجموعة آياته بعضها إلى بعض في السور، كما هي في صورتها الأخيرة. وكان كل ذلك مكتوباً فيما تعودوا أن يكتبوا فيه في زمانهم، من الرقع والجلود وسعف النخيل... وما إلى ذلك.

لكن هذه السور لم تكن مجموعة بعدُ في كتاب جامع. ولا جرم أن ظل القرآن يتنزل طوال حياة الرسول r ولم يكن أحد بقادر على إدراك أن تمام أي سورة قد وصل إلى منتهاه، إلا بعد أن توفي الرسول r وانقطع الوحي.

وبموته r ارتدت جزيرة العرب ــ إلا أقلها ــ فاقتضت الحاجة أن يهجر الصحابة y وحفظة القرآن موطنهم، ليجاهدوا في سبيل الله. فقُتل منهم العدد الكبير، خصوصاً في يوم اليمامة، وما أدراك ما يوم

اليمامة![1]. ذلك اليوم الذي جعل الخوف يهيج الفاروق عمر t أن يضيع القرآن بموت حفظته؛ فدعا صاحبه الخليفة الأول أبا بكر الصديق t أن يأمر بجمع سور القرآن من صدور الرجال، ويجعلها في صحائف، وفق ما حفظوه عن رسول الله r في مراجعة جبريل u الأخيرة له. ففعل رضي الله عنه وأرضاه.

وبمبادرة أبي بكر t إلى ذلك هدأت ثائرة الخوف من ضياع القرآن، ولو إلى حين. "وكانت الصحف ــ التي جُمع فيها القرآن ــ عند أبي بكر t حتى توفاه الله، ثم عند عمر t حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر"[2].

بقي هناك أمران: هذه الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وهذا المصحف الجامع المخطوط على الورق، والذي نتداوله اليوم بأيدينا.

لقد علمنا من قبلُ أن القرآن "أُنزل على سبعة أحرف"[3]، كل حرف بلغة من لغات العرب، المنتشرة في الجزيرة العربية؛ تيسيراً للحفظ والتلاوة. ولنا أن نتصور أن هذا المصحف المجموع عند حفصة، كان متسعاً لشتات هذه الحروف. لكن اتساع الدولة الإسلامية، وانتشار قراء القرآن من الصحابة y في الأقطار المفتوحة، جهاداً وتعليماً واستيطاناً، أمكن له أن يثير العديد من الاختلافات بين المسلمين الجدد، بسبب

---

[1] ــ انظر: ملحق رقم3.

[2] ــ أخرجه البخاري والترمذي من حديث زيد بن ثابت. انظر: جامع الأصول. ج2. حديث رقم974.

[3] ــ متفق عليه من رواية ابن عباس t . وأخرجه الجماعة من رواية عمر بن الخطاب t . وأخرجه مسلم والترمذي وأبو داود ومالك في الموطأ عن أبي بن كعب t . وانفرد به البخاري من رواية عبد الله بن مسعود t . انظر: جامع الأصول. ج2. الأحاديث: 939، 940، 941، 942.

اختلاف قراءة صحابي عن آخر. صحيح أن هذه الاختلافات كانت هينة وشكلية وقليلة، ولكنها ــ في كتاب الله ــ كانت تشكل خطراً لا يمكن الاستهانة به. ولئن كانت كل من تميم وثقيف وهوازن وربيعة وبطون قحطان، وغيرها، كلها عربية صميمة؛ إلا أنها ظلت تدين دينونة كاملة للسان قريش، منذ عهد الجاهلية. وما حديث أسواق عكاظ والمجاز وذي المجنة عنا ببعيد، إذ يتذاكر القوم أشعارهم في بلاد قريش وبلسانها.

من هنا فقد دعت الحاجة إلى جمع الناس على قراءة واحدة بدلاً من سبع. لكأن الست الأخرى كانت تسهيلاً مؤقتاً لجماع القبائل، إلى أن تتمكن من قراءة حرف قريش.

وهكذا توجه الخليفة الثالث عثمان بن عفان **t** إلى إعادة تدوين القرآن من صدور الصحابة **y** مرة أخرى، ولكن وفق قراءة قريش، مسقطاً ما سواها مما خالفها[1]. ثم جمع كل ذلك، وقارنه بما لدى أم المؤمنين حفصة ــ رضي الله عنها ــ من صحف سابقة الجمع. ولما اطمأن إلى توافق المصحفين، رد مصحف حفصة إليها، ثم عمم مصحفه على الأمصار. وصار هو المحفوظ، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها[2].

---

[1] ــ ومع ذلك فقد ظلت بعض الحروف غير القرشية في المصحف العثماني. فقد رأينا ــ على سبيل المثال ــ أن حرف النفي (ما) الذي لا يعمل إعرابياً هو السائد، رغم أنه من لغة تميم. مع العلم أنه جاء عاملاً بمعنى (ليس) كما هو حال لغة قريش، في قوله تعالى في الآية 31 من سورة يوسف: "ما هذا بشراً".

[2] ــ يقول الطبري عن هذه القراءات: "لم تُنسخ فترفع، ولا ضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها. ولكنّ الأمة أُمرت بحفظ القرآن، وخُيِّرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت.... فرأت، لعلة من العلل أوجبتْ عليها الثباتَ على حرف واحد، قراءتَهُ بحرف واحدٍ، ورفْضَ القراءة بالأحرف الستة الباقية". تفسير الطبري. ج1. ص20.

على هذا أجمع الصحابة y كافة. ولم يشذ عنهم إلا ما روي عن عبد الله بن مسعود t من أنه كان لديه مصحف لا يحتوي على سورة الفاتحة وسورتي الفلق والناس؛ وربما كانت سوره مرتبة ترتيباً مخالفاً لترتيب مصحف الخليفة الثالث. هذا، وقد وسع ابن مسعود t أن يغلّ مصحفه فلا يسلمه إلى الحرق[1]، كما وسع عثمان وأصحابه y أن يتركوه وشأنه، مستوثقين من أن مخالفته لن تكون عظيمة الشأن، خصوصاً وقد علموا أن مصحفه سيزول بموته، أو بعد ذلك بقليل.

والآن ها أنت قد رأيت أن أيدي البشر قد تدخلت في جمع هذا القرآن، على الوجهة التي ذكرناها لك آنفاً. ولئن كنا قد علمنا ــ على وجه القطع واليقين ــ أن شيمة عمل المخلوقين النقصان، فلماذا لم يطرأ النقصان على هذا المصحف الذي بين أيدينا، مع كل ما رأيت!. ألم يجمعه المخلوقون، لا الخالق؟. ألم يكن هناك أدنى احتمال لأن يُفقَد حرف منه، ناهيك عما سوى ذلك من الاحتمالات؟. فلماذا وصل إلينا على هذه الصورة الكاملة التامة، التي لا نستطيع أن نجد فيها نقصاً، حتى لو ملأنا سطوره وكلماته بحثاً؟.

---

[1] ــ روى ابن كثير أن عبد الله بن مسعود قد عتب على عثمان تقديم زيد بن ثابت y عليه في جمع المصحف، خصوصاً وقد سبقه إلى الإسلام. فأمر أصحابه أن يغلوا مصاحفهم. وتلا قوله تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾. ثم عاد عن ذلك إلى إجماع الصحابة y. البداية والنهاية. ج7. ص217. أما ابن حزم فينكر وقوع شيء من ذلك قائلاً: "وكل ما رُوِي عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه، فكذب موضوع لا يصح. وإنما صحت عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، وفيها أم القرآن والمعوذتان". المحلى. ج1. ص13.

تأمل في القرآن سورة سورة، وآية آية، ثم قل لي: أي حرف تراه كان يجب أن يكون هنا ثم لم يكن؟. أو أي حرف تراه زائداً، بحيث لو رفعته من موضعه لما حدث لديك خلل، في المعنى أو الجمال؟.

ثم هذا الترتيب للسور في المصحف، هل تجد له بديلاً ممكناً يظهر الكتاب على صورة أكثر جمالاً، أو أشد إشراقاً؟. إن ترتيب السور في المصحف على هذا الشكل هو من صنع الآدميين، فلا توجل[1]. ولكن، هل تستطيع تصورَ ترتيبٍ آدميٍ على نسق أفضل مما ترى؟. فمن الذي ألهم كل هؤلاء الأشتات، من حفظة القرآن في الجيل الأول، أن يتفقوا على هذا الترتيب؟. ثم هب هذا الترتيب جاء بالإكراه من الخليفة الثالث **t** فهل كان لإكراه أن يكون أكثر جمالاً، دون موافقة من الله الذي أنزل القرآن أول مرة؟. أليس هذا دليلاً على أن هذا الكتاب محفوظ برعاية الله ومشمول بحمايته!.

إن في ترتيب المصحف، وفق ما نراه اليوم، إعجازاً أيما إعجاز. وإلا فمن من المخلوقين كان مستطيعاً في الماضي، أو هو مستطيع الآن؛ أن يقدم لنا ترتيباً أفضل، ثم يجد له من الشهداء الموضوعيين من يوافقه على ذلك!. أم لعلك تظن أن الكافرين والملحدين في العالم كله ــ اليوم وأمس وغداً ــ غير آبهين بإثبات عكس دعوانا، فيما نراهم يجندون الجيوش والأموال لمحو الإسلام، ثم لا يستطيعون!. أم كان عملاؤهم من أصحاب

---

[1] ــ لقد تدخلت أيدي البشر في ترتيب السور في المصحف، فجعلت الفاتحة في الابتداء، ثم ثنت بالبقرة إلى آل عمران، وهلم جراً حتى سورة الناس. ثم تدخلت أيدي البشر مرة أخرى في الفصل بين سور القرآن بالبسملة ــ باستثناء ما كان عليه الحال بين الأنفال وبراءة ــ مع أنها لم تثبت بالتواتر آية من كل سورة، سوي سورة النمل.

اللسان العربي قلائلَ، ولا تتوفر لهم الفصاحة اللازمة لدخول حلبة النزال!. لقد صدق الله أحسن القائلين، إذ طمأن نبيه r على حفظ هذا القرآن: إن في جمعه وإن في تدوينه؛ فقال: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾(القيامة/17).

ثانياً: في حفظه من التبديل والتغيير:

ثم تأمل معي من بعدُ في قول الله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾(الحجر/9.). ألم يكن هذا مجرد وعد قبل خمسة عشر قرناً!. فكيف تحقق هذا الوعد على طول الزمان، مع كل هذا الكيد للقرآن وأهله!.

تأمل معي أحوال المسلمين اليوم وبالأمس: هل كان يمكن أن تحفظ هذه الأمة كتابها ــ كما أُنزل، وكما وصل إلينا ــ لو كان الأمر موكولاً إلى قدراتها الخاصة؟. ألم تر كيف انقسم المسلمون إلى فرق، تكفّر الواحدة منها الأخرى، وتستند فيما تقول إلى آيات من هذا القرآن، تحرفها وتؤولها بما ينصر دعواها، دون أن تستطيع تبديل كلمة أو حرف منه. دع عنك السورة أو الآية!. إنك لا تستطيع الادعاء بأن الورع هو ما منع هذه الفرق من ذلك؛ وقد أدخلت على حديث رسول الله r ما احتاج إلى جهود أجيال من العلماء، لتنقيته من كل دخيل[1].

---

[1] ــ "قيل إن الرشيد أخذ زنديقًا ليقتله، فقال: أين أنت من ألف حديث وضعتها؟ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك: ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا". الذهبي. تذكرة الحفاظ. ج1. ص201.

ثم جاء على المسلمين زمان ضعفوا فيه عن حماية أوطانهم وأعراضهم وعقيدتهم، وغيّر عليهم أعداؤهم كل معروف، وأحلوا مكانه كل منكر، ولكنهم ــ بعد هذا كله ــ لم يستطيعوا تبديل آيات هذا الكتاب، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين. بل إن رصيد أربعة آلاف سنة من الكيد، لم تستطع أن تمد اليهود بما يمكنهم من تغيير حرف واحد من هذا القرآن، وهم الذين غيروا الكتب السابقة من قبل.

فليجمع اليهود جمعهم، وليوظفوا كل أموالهم، وليستعينوا بما شاؤوا ومن شاؤوا لتغيير الآيات التي تحكم بذلتهم، وتغري المسلمين بقتالهم، ثم لينظروا: هل من شركائهم من يفعل من ذلكم من شيء؟ سبحانه وتعالى عما يشركون!.

لقد قضى الله ﷻ بالذلة على اليهود، ونطق بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ضُربت عليهمُ الذلَّةُ أينما ثُقفوا، إلا بحبلٍ من الله وحبل من الناس. وباؤوا بغضبٍ من الله، وضُربت عليهم المسكنة. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق. ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون﴾(آل عمران/112).

فإذْ لم يكن اليهود بقادرين على محو الآيات التي نزلت بفضيحتهم، فهلا أثبتوا عملياً كذب القرآن فيما ادعاه، فغيروا من ذلتهم، وتحولوا إلى أمة عزيزة مستقرة، غير معتمدة على حبل الناس!. ألسنا نعرف جميعاً أنه لولا حبل أمريكا لزالت إسرائيل بين عشية وضحاها؟. ألم ترَ كيف انكشفت سوأتهم في يوم واحد، قبل أن تتدخل قوى الغرب لتمدهم

بحبلها![1]. أم ترى أننا لا نسمع صراخ كبارهم كلما اقتحم مسلم فرد عليهم حصونهم: (هذا العمل يهدد بقاء إسرائيل)!. فأفٍ لدولة يهدد بقاءها فرد أعزل إلا من إيمانه. وأفٍ لأمة تستشعر كل هذا الخوف وتعلنه، وهي في حصنها.. لو كان حصنها قادراً على حمايتها من حكمٍ توقن في سريرتها أنه متحقق، ولو بعد حين.

ثم أرأيتك هذه القنابل الذرية، التي يقول اليهود إنهم يمتلكونها، ويخوفون بها من حولهم؛ هل هي مستطيعة أن تمنع عنهم عذاب الخزي الدنيوي القادم؟. انظر إلى هؤلاء المسلمين ــ في أشد مراحل ضعفهم ــ هل ترى منهم من أحد يخشى من فعل هذه القنابل، لو كان الأمر موكولاً إلي اليهود، من دون حبل الناس؟. حسناً، فلتعلن إسرائيل نفسها دولة غير ذات حاجة إلى حبال الناس، ثم لتنظر: هل تخيف قنابلها من حولها. ثم فلتتفكر، وليتفكر معها العالم: كم ساعة سوف يدوم عمر هذه الدولة اللقيطة؟.

لقد انقضت الآماد، ومرت أجيال من اليهود والملحدين والمشركين وأعداء القرآن، وكلهم سمع بهذا التحدي، وكلٌّ توفرت لديه الرغبة في الاستجابة له، ولكنهم لم يستطيعوا. أليس هذا هو الإعجاز بعينه!.

---

[1]ــ المقصود حرب السادس من أكتوبر المجيدة 1973. عندما أطلقت رئيسة حكومة العدو نداءها الأشهر لأمريكا: أغيثوا إسرائيل.

الفصل الثالث
في إعجاز السورة الواحدة

أولاً: في سر الإعجاز:

يقول الإمام الخطابي رحمه الله:

"فتفهّم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني... ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم. فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله"[1].

* فكل سورة من سور القرآن متوفر فيها أمور ثلاثة، هي:

1. أفصح الألفاظ: أي أن كل لفظة ترد في مكان من السياق القرآني، إنما ترد بذاتها، ولا تقوم مقامها كلمة غيرها؛ وإن توهم المتوهمون أنها مرادفة لها.

2. أحسن نظوم التأليف: أي أن السياق القرآني جاء دائماً في أعلى درجات الجمال. ويغلب على الظن أن هذا ناتج عن أمور ثلاثة هي:

---

[1]ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص27ـ28.

2/أ. تناسق كل كلمة مع ما يسبقها وما يتبعها من الكلمات في الآية الواحدة.

2/ب. تناسق كل كلمة مع ما يسبقها وما يتبعها من الجمل والآيات، في السورة الواحدة.

2/ج. تناسق كل آية مع ما يسبقها وما يتبعها من باقي الآيات في السورة الواحدة.

3. مضمناً أصح المعاني: أي أن كل هذا الجمال لا يأتي على حساب المعنى. بل إن توافق جماليات كل من الشكل والمحتوى فيه، تبلغ درجة من التوافق تُعجز المخلوقين، أن يتصوروا انسجاماً مقارباً خلاف ما جاء عليه هذا النظم.

ثانياً: كل القرآن في أم القرآن:

الفاتحة هي مطلع القرآن، وأول سورة في المصحف. فبها يبتدئ القارئ، وعندها يتهيأ لتلقي النبأ العظيم. لذا فقد ناسب أن تجمع بين براعة الاستهلال، وتكثيف المعاني.

1. فأما براعة الاستهلال فواضحة يستشعرها القارئ بمجرد أن يبدأ بها تلاوته، فينشرح صدره للحمد والتوحيد والعظمة وشمولية الخطاب، ويغدو متهيئاً لمواصلة التلاوة واستقبال الأوامر والنواهي.

2. وأما تكثيف المعاني فنراه فيما اشتملته من جميـــع مقاصـــد الكتـــاب العزيز[1]. فاستحقت أن تسمى بأم الكتاب.

إنه يبتدئ بالجميل المختصر، ليقودك من ثم إلى تدبر التفاصيل، متلهفاً لمعرفة ما سبقت الإشارة إليه. وهكذا شاء الله أن يستهل كتابه المقــروء بأعظم سورة في القرآن، وأم الكتاب والسبع المثاني الذي أوتيه رســول الله r [2]. ولأنها ركن الصلاة الركين، فقد سماها الله I في الحديث القدسي (الصلاة)، كما سمى الرسول r الحج عرفة، سواء بسواء. قال:

"قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين. ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين؛ قال الله تعالى: حمدني عبــدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم؛ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قــال: مالك يوم الدين؛ قال: مجدني عبدي (وقال مرة: فوض إليَّ عبدي). فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين؛ قال: هذا بيني وبــين عبــدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الــذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين؛ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل"[3].

1ــ انظر: جلال الدين السيوطي. معترك الأقران. ج1. ص58.

2ــ إشارة إلى حديث أبي سعيد بن المعلى، قال: قال رسول الله r : "ألا أُعلمك سورة هي أعظم الســور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ ثم أخذ بيدي. فلما أراد أن يخرج قلت: ألم تقل: لأُعلِّمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟. قال: الحمدُ للَّهِ رب العالمين قال: هي السبع المثاني والقــرآن العظــيم الذي أوتيتُه". متفق عليه. انظر: جامع الأصول. ج8. الحديث رقم6234.

3ــ صحيح مسلم. حديث رقم395.

من هنا فقد علمنا أن أم الكتاب هي دليله، وأنه مدلولها. وشرف الدليل بحسب ما يدل عليه، كما يقول الشيخ الأكبر[1].

وإذا كان القرآن عقيدة وشريعة، وطريقة، وحقيقة؛ فإن كل ذلك دلت عليه الفاتحة: فأما الشريعة والعقيدة فدل عليهما ﴿إياك نعبد﴾، وأما الطريقة فقادت إليها ﴿إياك نستعين﴾، في حين توصل ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى الحقيقة. فبان بهذا أن الفاتحة اعتقاد وعمل وأسلوب وثمرة. فكلما تأملت في آياتها ازددت رفعة وسناءً، وكأنك تقرأ القرآن كله. فلا جرم أدرك فقهاء الصحابة **y** فائدتها العلاجية، ورقوا بها من أصابه الضرّ، كما ورد ذلك في حديث أبي سعيد الخدري **t** إذ قال:

"كنا في مسير لنا، فنزلنا منزلاً، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نفَرنا غَيَب، فهل منكم راقٍ؟. فقام معها رجل ما كنا نأبِنُهُ برُقْيَة، فرقاه فبرأ. فأمر له بثلاثين شاة. وسقانا لبنا. فلما رجع، قلنا له: أكنتَ تُحسن رُقْيةً؟ أو: كنتَ ترقي؟. قال: لا، ما رقيتُ إلا بأمِّ الكتاب. قلنا: لا تُحْدِثوا شيئا حتى نأتي ــ أو نسألَ ــ رسول الله **r** .. فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي **r** ، فقال: وما كان يُدْريه أنها رقية؟. اقسِمُوا، واضربوا لي بسهم"[2].

وأما أنها السبع المثاني، فلأمرين:

---

[1] ــ انظر: محيي الدين ابن عربي. الفتوحات المكية. السفر الثاني. ص185.

[2] ــ متفق عليه. انظر: جامع الأصول. ج7. الحديث رقم5720.

1. الأول: أنها مقسومة بين الله وعبده، كما رأيت: حيث يغيب كل ما يقف حائلاً بين العبد وسيده، ولا يتبقى إلا حضرتان: حضرة الرب وحضرة العبد[1].
2. والثاني: أنها سبع آيات تتكرر في كل صلاة. ولقد علمتَ أن لا صلاة مكتوبة أقل من ركعتين.

فإذا علمت ذلك، فقد بان لك لماذا لم يستطع أحد من المخلوقين ــ أو جميعهم ــ أن يأتي بمثل هذا الإيجاز الباهر، أو ما يقارب مثله، أو ما يدنو من تخومه، فيبطل رسالة محمد **r** التي أزعجت كل الظالمين. وأنْ لو استطاعوا لما عدلوا عن البيان اللساني، إلى القتال المؤدي بهم إلى الأسر أو القتل.

هذا وقد ابتدأت أم القرآن بـ(الحمدُ لله) بصيغة الابتداء المرفوع، لأنه أبلغ من الابتداء بها منصوبة على تقدير فعل محذوف ــ كما قرأ بذلك البعض ــ ففي الابتداء بالمرفوع دلالةً على ثبات المعنى واستقراره. ألم تر أن إبراهيم **u** رد التحية بأفضل منها، حين قالت له الملائكة سلاماً، فقال سلام؟[2].

والحمد في حقيقته عمل القلب. أما ذكره باللسان، فإعلانٌ بالاعتراف بحصول النعمة، وثناءٌ على مانحها، وإشراكٌ للجوارح في عمل القلب.

---

[1] ــ انظر: محيي الدين ابن عربي. الفتوحات المكية. السفر الثاني. ص187.

[2] ــ انظر: تفسير الكشاف. ج1. ص112. وتفسير النيسابوري. ج1. ص84. والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إذ دخلوا عليه، فقالوا: سلاماً. قال: سلام﴾. هود/69.

وإذا كانت العادة قد جرت بحدوث المدح قبل الإحسان وبعده[1]، فإن الحمد لا يحدث إلا بعد الإحسان. ألم تشرب ماءً بارداً ذات يوم حارٍ، بعد عطش شديد؟. فماذا استشعرت وأنت تتجرع هذا الماء؟. ألم تر كيف نطق قلبك، من قبل أن تعيد الفكر أو تبدأه: (الحمد لله)!. فذلك فضل الحمد على المدح. وذاك ربي وربك المنعم المتفضل، الذي ملأ قلبك بشكره، من قبل أن ينطق لسانك.

وإذا كان الحمد هو تمام الشكر، والثناء بجميل الفعال[2]؛ فقد ناسب أن يحمد الجليلُ نفسه، ثم لا يأذن لغيره أن يفعل[3]. إذ لا يستحق تمام الشكر على الحقيقة إلا هو. ومن هنا يتضح أن كلمة الشكر لا تقوم مقام كلمة الحمد أبداً: لأن باستطاعتك أن تقول لمن هو مثلك: (الشكر لك)، ولكنك لا تستطيع أن تقول له: (الحمد لك). وما ذاك إلا لأن أل التعريف هنا تفيد استغراق الجنس، بخلافها هناك[4]. فلئن قال قائل: (الحمد لله)، لقد أثنى علي الله بما هو أهله، وبما هو حقه وملكه، كما توضح ذلك اللام الجارة التي سبقت اسم الجلالة. ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا إذا استقر في القلب استحقاقه سبحانه للثناء، إن أعطى وإن منع: إذ كثيراً ما يظن العبد أن الله مانعه ما يهوى، وهو في الحقيقة دافع عنه بلاءً أعظم.

---

[1]ــ ولهذا كثيراً ما يكون المدح كذباً. ألم تر أن الشعراء يثنون على الممدوح بما ليس فيه، رغبة ورهبة، فيفشو النفاق في المجتمع؟. ولهذا "أمَرَنا رسولُ الله r أن نَحْثُوَ في وُجوهِ المدَّاحين التراب". أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي من رواية عبد الله بن سخبرة t . وأخرج بمعناه أبو داود من رواية أبي هريرة t . انظر: جامع الأصول. ج11. الحديث رقم 5820، والذي يليه.

[2]ــ انظر: شرح النووي على صحيح مسلم. ج4. ص104.

[3]ــ الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتقى﴾. النجم/23.

[4]ــ انظر: تفسير القرطبي. ج1. ص133.

هذا ومن رحمة الله ا بنا أن علمنا كيف نحمده، ورزقنا الاهتداء لحمده. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. فله الحمد في الأولى والآخرة. إذ الإنسان عاجز عن حمده حمداً يليق به. ومن هنا لم يكلفه الله الرحمن الرحيم فوق ما يستطيع؛ بل رزقه أن يقول كلمة تعبر عما في قلبه. ولو لم يعلمه إياها لما علمها.

والآن، كم من العقائد وآداب السلوك تراها في هاتين الكلمتين الخفيفتين؟. ولكن إياك أن تغتر أو تتخدع، فإن ما خفي من تأويلهما أكثر مما تقدر على إدراكه العقول. ولكن الله يعطي من علمه من يشاء من عباده على قدر طاعته. ﴿وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون: آمنا به كلٌّ من عند ربنا. وما يذّكّرُ إلا أولو الألباب﴾(آل عمران/7).

أما ﴿رب العالمين﴾: فربٌّ كل ما سواه. وكل ما سواه مخلوق له، يربيه ويغذيه ويهديه. فهو: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾(طه/50).) لكنّ في إضافة (العالَمين) إلى ذاته سبحانه وتعالى كرماً شديداً. ألا ترى أنه يربيك كأنْ ليس له عبدٌ سواك، ثم أنت تخدمه كأنّ لك أرباباً من دونه!. فسبحان من رحم عبيده المقصرين، وغفر لهم، وعلمهم مما يشاء، ثم أدخلهم الجنة برغم كل شيء!.

فانظر إلى الإعجاز في آية، تحمل من الأسرار ما هذا قليله!. فهل من البلغاء، أو الشعراء أو الشركاء، من يفعل من ذلكم من شيء!. سبحانه وتعالى عما يشركون.

أما: ﴿الرحمن الرحيم﴾ فرغم أننا نقول في اللغة إنهما "صفتان مشبهتان بنيتا لإفادة المبالغة"[1]؛ إلا أن ذلك لا ينفي كونهما اسمين من أسماء الله الحسنى ــ كما هو مذهب أهل الحق ــ أحدهما اختص به نفسه، والثاني أمكن عباده من التسمي به، على سبيل المجاز. ولذا فقد كان من أكذب الكذب، وأشنع الكفر، أن يجرؤ مخلوق على ادعاء هذه الصفة لنفسه. ثم علمتْ ذلك العرب بفطرتها، فلم تسمِّ أحداً من أبنائها بالرحمن. ولذا فقد حُق اسم الكذاب على من جرؤ على تسمية نفسه بهذا الاسم. فلما أن جاء مسيلمة وادعاه لنفسه؛ سربله الله باسم الكذاب، سربالاً شنيعاً إلى يوم القيامة، حتى أنه لم يعد يُعرف في الدنيا إلا بهذا الاسم؛ جزاءٍ وفاقا.

ولهذا فقد علمنا أن كان اسم (الرحمن) يحمل ــ ولا بد ــ من المعاني ما يُعجز الوصف: فمن معانيه الشمول والعموم: فهو سبحانه يخلق ويرزق، وينفع ويرحم، كلاً من البر والفاجر. بل إن الأمر ليتعدى كل وصف، حين ندرك أنه سبحانه وتعالى ربما ترك يوم القيامة عقوبة العصاة، رغم استحقاقهم إياها.

وإني وإنْ أوعدتُه أو وعدتُه لمُخْلِفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

أما (الرحيم) فقد جاء على وزن (فعيل)، الذي هو أقل شمولاً من (فَعْلان) التي جاء على وزنها (الرحمن)؛ ولذا فقد قيل إن هذا الاسم يحيل إلى لطفه الخاص بعباده المؤمنين، إذ هداهم إلى الإيمان، ووفقهم إلى الطاعة، ثم ختم لهم بالجنة. وربما لهذا السر قُدّم اسم (الرحمن) على (الرحيم)؛ مع أن العادة قد جرت بالتدرج من الأدنى إلى الأعلى. لكأن

---

[1] ــ تفسير الألوسي. ج1. ص58

اسم الرحيم جاء تتمة لاسم الرحمن، ورديفاً له[1]. "كأنه يقول: الرحمة الواحدة لا تكفي لصلاح المخلوقات؛ فذرني وعبيدي، فإني أنا الرحمن الرحيم. رحمتي غير متناهية، ومعصيتهم متناهية. والمتناهي لا يدرك غيرَ المتناهي، فستغرق معصيتهم في بحار رحمتي"[2].

أما ﴿مالك يوم الدين﴾: فتمجيد لله وثناءٌ عليه سبحانه بصفات الجلال[3]. وحُقّ لعبد مستغرق في عبوديته أن يملأ قلبَه جلالُ مالكه. فالمالكُ هو ذو المِلك ــ بكسر الميم ــ وهو من مَلَكَكَ، فكنتَ عبدَه، وكان سيدَك. أما الملك فهو ذو المُلك ــ بضم الميم ــ ورغم قول أهل النحو أن الثانية أبلغ من الأولى[4]، إلا أن مجيء القراءتين بهما جميعاً[5] فيه فائدة كبيرة لك، إذ تصبح بين واحدة من حالتين: فإما أن تكون عبداً لمالك يملكك فيرحمك، أو تكون عبداً لملك قوي تستظهر بقوته على الآخرين. لكن حالة ثالثة هي التي يغلب على الظن أنها المرادة، وتلك تقول بأنك عبد لمالك ملك؛ فتجمع بين فائدتين: التمتع برعاية المالك ورحمته، والاعتزاز بركن الملك وقوته.

---

[1] ــ انظر: تفسير الطبري. ج1. ص45. وتفسير النيسابوري. ج1. ص78.

[2] ــ تفسير النيسابوري. ج1. ص99.

[3] ــ انظر شرح النووي على صحيح مسلم. ج4. ص104.

[4] ــ انظر: محيي الدين الدرويش. إعراب القرآن الكريم وبيانه. ص30

[5] ــ انظر: تفسير الطبري. ج1. ص50.

ولعل من أسرار هذه الآية شمولها للعدل والرحمة معاً، غير أن الرحمة سابقة للعدل كما جاءت بذلك الأخبار[1]. فإن جاء يوم الدين ــ هذا الذي يملكه الله I ــ فقد جاء العدل وحلت الرحمة. أما العدل؛ فإعطاء كل مظلوم حقه من ظالمه. وأما الرحمة؛ فإرضاء المظلوم بالنعيم والجنان، حتى يعفو عن ظالمه[2].

فاسم المالك هو صفة رحمة، مناسبة لرحمته بالضعفاء والمساكين وعباد الله الفقراء، الذين نسأل الله أن نكون منهم. وأما صفة الملك فهي صفة قوة، مناسبة لرحمته بالأقوياء والعصاة من أمة أحمد. وكلٌّ له في رحمة الرحمن مطمع. ونعوذ بالله من الخذلان.

وقد تقدم ﴿الرحمن الرحيم﴾ على ﴿مالك يوم الدين﴾ إيناساً لأفئدة العباد بالرحمة قبل التكليف. ألم تر أنه يقول يوم القيامة "شفعَتِ الملائكة، وشفعَ النبيون، وشفعَ المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين"[3]، "ولم يقل: وبقي الجبار ولا القهار"[4]!.

فإذا جاءت هذه الآية: ﴿مالك يوم الدين﴾ فقد تم القسط المكرس لدعاء العبد سيده، حتى إذا بلغنا قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾؛ وجدنا

---

[1] ــ قال رسول الله r : "إنَّ الله قد كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي. فهو مكتوب عنده فوق العرش". متفق عليه من حديث أبي هريرة t . انظر: جامع الأصول.ج4. الحديث رقم2622.

[2] ــ انظر: ملحق رقم4.

[3] ــ متفق عليه. وهو جزء من حديث طويل رواه أبو سعيد الخدري. انظر: جامع الأصول. ج10. الحديث رقم7975.

[4] ــ محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. السفر الثاني. ص204.

أنفسنا بين يديه في مشهد خيالي، كأن الصلاة تقف أجسادنا في حضرة الله سبحانه. فلا جرم أن جاءت هذه الآية برزخية ــ كما يقول الشيخ الأكبر ــ وقع فيها الاشتراك بين الحق وبين عبده[1]: فأنت تعلم أن ما مضى، من الحمد والثناء والتمجيد والتفويض، خالص لله؛ وأما ما بقي منها فهو دعاء خالص للعبد. وهذه الآية ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ جاءت فاصلة ومشتركة: فاصلة بين حمده ودعائك، ومشتركة بينك وبينه: تعبده به، فيعينك ليعطيك. وكل هذا في آية واحدة من أربع كلمات.

عبادة خالصة وتفويض تام!. والعبادة ــ كما تعلم ــ أعلى مراتب الخضوع، وأسمى درجات الانشراح. فإذا أردت أن ينشرح صدرك، فقدم سيدك على نفسك ﴿إياك نعبد﴾، وقدم المستعان به على المستعين ﴿وإياك نستعين﴾. فها هنا معرفة وسيلتها العبادة. والكمال لا سبيل إليه إلا بالاستعانة بالمعين.

فإن ظن العبد أنه يستطيع عبادة ربه من نفسه وبنفسه، بقوله: ﴿إياك نعبد﴾؛ فسيتملكه العجز ويسيطر عليه القصور، إلا أن يتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، فيقول فوراً: ﴿وإياك نستعين﴾. وهنا فقط ينبهه سيده إلى قوله ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، فيسلم تسليماً[2]، على غير ما كان عليه المغضوب عليهم، ممن عاندوا الأنبياء وقتلوهم؛ وعلى خلاف ما اتبعهم عليه الضالون، ممن أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

---

[1] ــ انظر: محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. السفر السادس. ص291.

[2] ــ انظر: محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. السفر الثاني. ص204.

والآن دعنا نتأمل ملياً في أسلوب الالتفات هــذا: إذ تتحــول صــيغة الخطاب من الثناء بضمير الغائب إلى الدعاء بضمير المخاطب. أرأيتــك العبد حين يدخل في الصلاة كيف يكون؟. إنه يبدأ بالدعاء استعداداً للمثول بين يدي مولاه. فإذا قُبل دعاؤه، فقد دخل في الحضرة العليّــة، وصـــار متوجهاً بخطابه إلى الله دون واسطة. وكأن الله I يقول له عندئذ: فأما إذْ أثنيت عليّ بما تستطيع؛ فسأبدلك ببعدك قرباً؛ فتقول لنا مباشــرة: إيـــاك نعبد، وإياك نستعين.

دلالة أخرى من دلائل الإعجاز، يشير إليها هذا التحول الآخــر مــن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع، في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾؛ إذ لم يقل إياك أعبد. فخوف العابد من تقديم عبادته مفردة، يدفعه إلى خلطها بعبادة كبار العباد، كالأنبياء والشهداء والصالحين، لعلها تُقبل. فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم. ألم تر كيف استعان نبي الله إســماعيل u علـــى الذبح، بأن زج نفسه في زمرة الصابرين، فجازاه الله ضـــعف مـــا أمـــل وزيادة: رزقه الصبر الذي طلبه، ثم افتداه؟[1].

﴿اهدنا الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم﴾: أنت تعلـــم أن الصراط هو الطريق، لكن في عدوله I عن كلمة الطريق إلى (الصراط) إشارة إلى الصراط الممدود جسراً فوق جهنم. فكأن الهداية هنا تقود إلـــى الثبات هناك.

---

[1]ــ الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال: يا أَبتِ افعلْ ما تُؤمَرُ. ستجدني إن شـــاء الله مـــن الــصابرين﴾. الصافات/102.

والصراط المستقيم: هو أقصر طريق ينتهي بصاحبه إلى المقصود. ولذا نرى استرحام العبد المتضرع بادياً في هذا الدعاء. فكما أن العبد عاجز عن الاهتداء إليه دون عون منه سبحانه، فهو كذلك عاجز عن سلوك طوال الطرق. فكأنه يقول: يا رب، كما هديتني إلى سبيل الوصول إليك، فاجعل طريقي أقصر ما يمكن، كي أبلغ بأسرع ما أستطيع.

فانظر كيف هدى الله العبد للإيمان ابتداء؛ ثم علمه كيف يستهديه أقصر الطرق للوصول إليه، ثم لم يدعه حتى رزقه الرفقة الحسنة ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾(النساء/69).

والرفقة الحسنة ــ بحد ذاتها ــ دعاء لله بألسنة لم تعصه من قبل.

﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾: المغضوب عليهم هم اليهود، وكل من كان مثلهم ممن عرف الحق فأنكره. بل لقد تراكم عليهم غضب الله جيلاً بعد جيل، وباؤوا بغضب على غضب، جزاء ما غيروا في التوراة، ثم جزاء ما أضلوا النصارى، الذين اتبعوهم على هذا التغيير، وقبلوه، واعتبروه جزءاً أساسياً من كتابهم المقدس[1].

لكن طريق المغضوب عليهم ــ الذين ندعو الله أن يهدينا عكسها ــ ليست مقتصرة على اليهود ومن كان مثلهم ممن عرف الحق وأنكره

---

[1] ــ يتكون الكتاب المقدس عند النصارى من جزأين: العهد القديم: وهو التوراة كما أوصلها إليهم اليهود؛ والعهد الجديد: وهو روايات الأناجيل المختلفة عن عيسى عليه السلام.

فحسب، بل إن عموم اللفظ يتجاوز خصوصية السبب، إلى كل من نص الله على انه مغضوب عليه.

فلعمري إن من المغضوب عليهم المنفيين عن صراط الذين أنعم الله عليهم ــ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ــ الآتيةُ أوصافهم:

1. قاتل المسلم عمداً دون سبب شرعي، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾(النساء/93).
2. المتخلي عن واجبه في مواجهة الكفر، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(الأنفال/16). لأن في فراره من جهاد الكافرين والطغاة نصراً للظلم وفساداً في الأرض.
3. شهادة المرأة على نفسها كذباً في الملاعنة، لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عليها إِن كَانَ من الصَّادِقِين﴾(النور/8ــ9).

أما الضالون فهم النصارى، وكل من أضله غيره عن الحق فاتبعه. ولقد كان جزاء هذا الضلال أن أغرى الله بين فرقهم، العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسال من دمائهم ــ على أيدي بعضهم البعض ــ ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم. "وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه

العداوات والخلافات... وهي ماضية إلى يوم القيامة، كما قال أصدق القائلين، جزاء على نقضهم ميثاقهم"[1].

لهذا وذاك قال رسول الله r : "المغضوب عليهم: اليهود. وإن الضالين: النصارى"[2].

لكن طريق الضالين ــ الذين ندعو الله أن يهدينا عكسها ــ ليست مقتصرة على النصارى ومن كان مثلهم؛ ممن قبل بتعطيل ملكة التفكير، التي وهبه الله إياها، ورضي باتباع المضللين المغضوب عليهم فحسب، بل إن عموم اللفظ يتجاوز خصوصية السبب، إلى كل من نص الله على أنه ضال.

ولعمري، مرة أخرى، إن من الضالين المنفيين عن صراط الذين أنعم الله عليهم ــ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ــ الآتيةُ أوصافهم:

1. القانط من رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿ومَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾(الحجر/56).

وما ذاك إلا لأن اليأس من رحمة الله ينافي معرفته. فلو عرف العبد أن لله صفة استوعبت كل صفاته ومخلوقاته (هي الرحمة) إذن لما شعر بدبيب اليأس يتسلل إلى قلبه. ثم إن من طبيعة القانط من رحمة الله أن يوغل في الفساد والبغي، ظاناً أن ليس في إمكان الله أن يزيد في عذابه

---

[1] ــ سيد قطب. في ظلال القرآن. ج2. ص870.

[2] ــ رواه الترمذي عن عدي بن حاتم. انظر: جامع الأصول. ج2. حديث رقم471.

عما تقرر أولاً. فيا ليت شعري، هل يظن هذا إلا من أسقط صفات المخلوقين على الخالق، فنسبه إلى النقص!. سبحانك! هذا بهتان عظيم.

2. المعارض لحكم الله ــ الثابت المعلوم ــ برأيه الشخصي، وذلك لقوله تعالى: ﴿وما كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينا﴾(الأحزاب/36).
3. قاسي القلب الذي لا يرحم عباد الله ولا يتعظ بكتابه، لقوله تعالى: ﴿فوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِين﴾(الزمر/22).
4. الذي يُدعى إلى الله ــ بطريق صحيحة ــ ثم يستكبر ويتولى عن الهداية بعد أن تبينت له، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِي اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِين﴾(الأحقاف/32).

فالحمد لله الذي جعل رحمته هي الموجود الأول، الذي تدلل عليه هذه السورة أيما تدليل: إذ ابتدأت بالحمد والرحمة ﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم﴾، ثم ثنت بصفات القوة والقهر ﴿مالك يوم الدين﴾، قبل أن تلوح بالغضب والإضلال ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. وفي هذا الترتيب إشارة إلى ما علمناه جميعاً؛ من أن رحمته سبقت غضبه: في

أم الكتاب أولاً، وقبل خلقه المخلوقات ثانياً[1]، ثم في أول افتتاح الوجـــود ثالثاً[2]. أرأيت كيف تجمع أم القرآن القرآن كله!.

ثالثاً: سورة الكوثر: جماليات الموقع والمعنى:

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ۩ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ۩ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**)**

ثالثاً/1: المفردات:

الكوثر: اسم جاء على صيغة منتهى الجموع، على وزن (فوعل). قال ابن منظور: "وهو فوعل من الكثرة. والواو زائدة"[3]. وجمعـــه (كـــواثر) على وزن فواعل، مثل جوهر وجواهر. وقال الزمخشري: "فوعـــل مـــن الكثرة، وهو المفرط الكثرة. وقيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟. قالت: آب بكوثر"[4]. والكوثر: نهر في الجنة، وُعده رسولُ الله r وأمته خاصة. وقيل: إن الكوثر هو خيرات الدنيا والآخرة. ولا تنـــاقض، لأن بينهما عموماً وخصوصاً[5].

1ــ الإشارة إلى الحديث المتقدم: "إنَّ الله قد كتب كتاباً قبــل أن يخلــق الخلــق: إن رحمتـــي ســـبقت غضبي". وقد سبق تخريجه.

2ــ الإشارة إلى قوله r : "لما نُفخ في آدم، فبلغ الروحُ رأسَه، عطس، فقال: الحمـــد لله رب العـــالمين. فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله". أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك، وقال: إســـناده صحيح على شرط مسلم. ج14. حديث رقم6165.

3ــ لسان العرب. ج5. مادة: كثر.

4ــ تفسير الكشاف. ج6. ص445.

5ــ انظر: تفسير الكشاف. ج6. ص446.

شانئك: أي مبغضك. فالشانئ هو المبغض. من الشنآن. قال تعالى: **(**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا**)**(المائدة/ 8).

الأبتر: هو "المقطوع الذَنَب... والأبتر أيضاً: الذي لا عقب له. وكل أمر انقطع من الخير أثره، فهو أبتر"[1].

ثالثاً/2: جماليات الترتيب:

كنا قد قلنا في السابق: إن من إعجاز هذا القرآن ــ بعمومه ــ أن أيدي البشر قد تدخلت في جمعه، ثم لم يطرأ نقصان على هذا المصحف الذي بين أيدينا. ونقول الآن: هكذا جُمع، وهكذا تم ترتيبه، وعلى هذه الصورة العثمانية أراد له الله أن يكون محفوظاً. ولو شاء الله لجاء مسلمون ــ مخالفون لنا ــ فأظهروا مصحفاً مخالفاً في ترتيب سوره. وإذ لم يشأ الله هذا، فقد حُق لنا أن نتوقع جماليات خاصة في ترتيب سور هذا المصحف العثماني، لا يمكن أن تتوفر في ترتيب مختلف. فلنتأمل بعضاً من جماليات ذلك في معاني سورة الكوثر وموقعها.

جاءت سورة الكوثر في ترتيب المصحف بعد سورة الماعون، وقبل سورة الكافرون. فما هي جماليات هذا الترتيب؟.

ثالثاً/1.2: علاقة السورة بما قبلها:

قبل التطرق إلى هذا المبحث، يجدر بنا أن نقول: إن الزمن في وعينا هو غير الزمن في وعي القرآن ــ بما أنه كلام الله ــ وإن ترتيب السور

---

[1] ــ مختار الصحاح. مادة: بتر.

في المصحف، يقول بحد ذاته شيئاً، حتى لو كان مخالفــاً لترتيبهــا فــي النزول. بمعنى أنه يصح لنا أن نستشهد بهذا الترتيب العثماني للمصحف، باعتباره دالاً بحد ذاته. فقد علم الله أن كتابه سيتم ترتيبه في المــصحف على هذه الشاكلة، وأذن به. وإن في هذا الإذن لبياناً يستحق أن نتأمله.

أقول هذا لعلمي بأن النصوص الواردة في أســباب النــزول وتــاريخ الآيات هي نصوص ظنية الثبوت والدلالة، فيما أن السور والآيات ــ كما هي في المصحف ــ قطعية الثبوت، بل وقطعية الترتيب كذلك. وبذا فإن ما في المصحف حاكم على ما سواه، ولو كان من السنة الصحيحة.

من هنا، فإن تأملاً بسيطاً في وقوع سورة الكوثر بعد سورة الماعون، سوف يحملنا على رؤية كم كانت هذه السورة تتمة لما قبلها: ففي ســورة الماعون السابقة كان الله I قد وصف الكافرين والمنافقين "بثلاثة أنــواع من الصفات المذمومة؛ أولها: الدناءة واللؤم، وهو قوله **(**يدع اليتــيم ولا يحض على طعام المسكين**)**؛ وثانيها: ترك تعظيم الخالق، وهــو قولــه: **(**عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون**)**؛ وثالثها: ترك انتفــاع الخلــق، وهو قوله **(**ويمنعون الماعون**)**"[(1)].

1. فالمكذبون والمنافقون ــ في سورة الماعون ــ بخلاء: **(**يدعّون اليتيم، ولا يحضون على طعام المسكين**)**. ولأنهم يفعلون ذلك خوفــاً علــى ثرواتهم من الزوال؛ فقد ناسب أن يقابلهم الله ــ في سورة الكوثر ــ بعكس ما يتوقعون: فبدلاً من أن يتمتعــوا بكــونهم أغنيــاء بالمــال

---

[1]ــ مفاتيح الغيب. ج32. ص120. ومعلوم أن ما ورد في الصحيح من أن الكوثر نهــر خــاص فــي الجنة لا ينفي هذا التعميم.

الممنوع، ملأ قلوبهم حسرة على ما خسروه من مال أعظم، كان من الممكن أن ينالوه، لكنه ذهب إلى غيرهم من المؤمنين. وهذا الذي خسروه ليس مالاً فحسب، بل هو الكوثر، كل خيرات الدنيا والآخرة، مما يمكن تصوره، ومما لا يمكن تخيله.

2. والمنافقون ــ في سورة الماعون ــ **(عن صلاتهم ساهون)** فهم يهملون الصلاة، برغم ادعائهم الإيمان. ولو كانت الصلاة تمثل لهم قيمة خاصة، لما أهملوها وسهوا عنها. من هنا فقد كان مناسباً أن تعقبها سورة الكوثر لتقول للمؤمن **(فصل)** صلاة حقيقية، إذا أردت ألا تشبه المنافقين. لا تكن كسولاً مثلهم، وداوم على الصلاة فلا تسهُ عنها.
3. والمنافقون ــ في سورة الماعون ــ **(يراؤون)** أي: يصلون متوجهين بصلاتهم إلى عيون الناس. ولأن هذا من أقبح أنواع الشرك بالله العلي العظيم، فقد ناسب أن تعقب السورة التي تليها، بتقديم صورة أنقى وأجلى وأجمل، لعباد الله المخلصين، الذي لا يتوجهون إلا لربهم **(لربك)**، في العبادتين البدنية والمالية، أو الصلاة والزكاة.
4. والمنافقون ــ في سورة الماعون ــ **(يمنعون الماعون)**، أي: يمنعون الزكاة. ولكي لا يشبههم المؤمنون في هذه الخصلة القبيحة، فقد ناسب أن يوجه الله أمره لعبده قائلاً: **(وانحر)** تقديماً لصورة مقابلة جميلة للتصدق باللحم ونفع الناس. ولأن النحر عبادة مالية، فقد ناسب أن تعقب العبادة البدنية، التي هي الصلاة.

ثالثاً/2.2: علاقة السورة بما بعدها:

وإذا كان تأملنا السابق في موقع سورة الكوثر، في المصحف، قد أظهر لنا قليلاً من جماليات الما بعد، فإن تأملاً مقابلاً، في جماليات المـــا قبـــل، سوف يكشف لنا كم أشبهت هذه السورة أن تكون أصلاً لما بعدها.

بعد سورة الكوثر هذه تأتي سورة الكـــافرون، التـــي يـــأمر الله فيهـــا رسوله r أن يكفر كل من لم يقبل برسالته، بما يثيره ذلـــك مـــن عـــداوة مستعرة لا يهدأ أوارها. وإن شئت أن ترى بعضاً من خطورة ذلك، فتذكر كم خاف موسى u من فرعون وكيده وعسكره، فيما بينه التنزيل العزيز من قوله: (فأوجس في نفسه خيفةً موسى)(طه/ 67).

وإذا كانت معجزة موسى u هي العصا، فإن معجزة محمـــد r هـــي القرآن. فلما أن أزال الله الخوف من قلب موسى u بقلب العـــصا حيـــة تأكل ما يأفكون، فقد أزال الله الخوف من قلب حبيبه محمد r بأن قدم على سورة التحدي المعلن ــ وهي سورة الكافرون ــ هـــذه الـــسورة تهيئـــة وتقدمة وتأهيلاً:

1. فبما أن الكوثر هو الخير العميم في العاجل والآجل؛ فلا شك أنه وعدٌ بالنصر، على كل هؤلاء الذين سيعلن النبي الكريم عداءه لهـــم، فـــي السورة التالية. وبما أن هاتين السورتين مكيتـــان ــ قبـــل الهجـــرة والمنعة والدولة ــ فإن ذلك يعني أن الله I سيبقي نبيه r حياً، حتـــى يشهد النصر[1].

---

[1] ــ انظر: مفاتيح الغيب. ج32. ص120.

2. وبما أن الله سيأمره ــ في السورة التي تليها ــ بكل هــذه المواجهــة الصاخبة، فقد ناسب أن يؤيده ويعضده ويكلمه: فنحن نعلم أن خطابه المباشر لنبيه r بقوله: **(**إنا أعطيناك**)**؛ "يقوم مقام قولــه **(**وكلــم الله موسى تكليما**)**؛ بل هذا أشرف، لأن الله إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان، كان ذلك أعلى مما إذا شافهه بغير هذا المعنى، بل يفيــد قوة في القلب، ويزيل الجبن عن النفس... فقدم هذه الــسورة علــى سورة **(**قل يا أيها الكافرون**)** حتى يمكنه الاشــتغال بــذلك التكليــف الشاق، والإقدام على تكفير جميع العالم"[1].

ثالثاً/3: في بلاغة قوله: إنّا أعطيناك:

1. لقد صدّر الله الآية بحرف التأكيد (إن) "الجاري مجــرى القــسم"[2]. ونحن نعلم أن كلام الله مصون عن احتمالات الخلف، فكيف إذا بــالغ في نفي ذلك بالتأكيد بإن التوكيدية!. إن في ذلك لبياناً مؤكداً لا يحتمل التلجلج.
2. من المعلوم أن كلمة (إنّا) في العربية إما أن تفيد الجمع، وإما أن تفيد التعظيم. فلما كانت إفادتها على الجمع مستحيلة ــ لأن ذلك مما ينافي التوحيد ــ فقد علمنا أن المراد بذلك هو التعظيم. وإن عظمة المعطي لتدل على عظمة العطيّة[3]. فالكوثر وإن كان عطيّة في غاية الكثرة، إلا أنه يزداد عظمة بكونه صادراً عن العظيم سبحانه. فتأمل كم هــو عظيم هذا الإلــه، الذي يعطي ما يبخل بمثله الملوك. وإن شئت مثالاً

---

[1] ــ مفاتيح الغيب. ج32. ص120.

[2] ــ مفاتيح الغيب. ج32. ص122.

[3] ــ انظر: مفاتيح الغيب. ج32. ص121.

يساعد على فهم ذلك، فتذكر كيف استدل صفوان بن أمية، على نبـــوة محمد **r** بما منحه من الغنائم، يوم حنين، في نفس الوقت الذي كـــان فيه المانح **r** يجوع يوما ويشبع آخر. عن عبد الله بن الزبير **t** قـــال: "بينا رسول الله **r** يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أميـــة؛ فجعل صفوان بن أمية ينظر إلى شِعبٍ مليءٍ نعماً وشاءً ورعاءً. فـــأدام النظر إليه رسول الله **r** يرمقه، فقال: أبا وهب، يعجبك هذا الـــشعب؟. قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفـــسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبي. أشهد أن لا إلـــٰه إلا الله، وأشهد أن محمـــدا عبده ورسوله. وأسلم مكانه"[1].

3. وفي هذه العظمة، من المهدي والهدية، ما يوحي بعظمة المهدى إليه. فلو لم يكن رسول الله **r** في نظر الله يستحقها، لما وهبه إياها. فتأمل كم هو عظيم هذا النبي **r** !.
4. التأكيد في بناء الجملة على المبتدأ بتقديم الضمير (نا) على الجملـــة. كأن الملك العظيم **I** يقول لنبيه **r** نحن نعطيك، بدل أن يقول: نعطيك. فهل بعد هذا من شك؟. وفي هذا التركيب اللغوي تـــشويق تمهيـــدي، يجعل المستمع يتوقع عظيماً: فبعد أن قال: نحن (نا)، وتوقعنا منه **I** عطية أفادتها هذه النحن؛ قال: أعطينا!. فإن تخلف معنى ذلـــك فـــي الوصول إليك، فتأمل في قوله **I** **(**فإنها لا تعمى الأبـــصار**)**(الحـــج/ 46)؛ فأنت ترى أن معناها: (هي الأبصار لا تعمى). ثم أنت لا تتشك

[1]ــ كنز العمال. ج10. حديث رقم30170. المتقي الهندي: علي بن حسام الدين. كنز العمال في ســـنن الأقوال والأفعال. ج10. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1989.

من بعد بأنها أفخم مما لو قال: (الأبصار لا تعمى)، وأشد تأكيداً[1].
وإن (نا) في سورة الكوثر، هي بمكانة الهاء في آية الحج.

5. في استخدام صيغة الماضي في الإعطاء (أعطيناك) ما يفيد حدوث ذلك بلا ريب. ولأنه من المعلوم أن ما حدث لا يمكن له أن يكون مشكوكاً فيه، فإن هذه الصيغة تفيد زيادة التأكيد.
6. في إضافة كاف الملكية بعد فعل الإعطاء، ما يفيد كرامة خاصة لهذا النبي **r** الذي أعطاه ربه الكوثر (له). ومن المعلوم المشهور أن نهر الكوثر خاص بمحمد **r** وأمته، كأنه يقول: أعطيناك الكوثر نعمة خاصة بك وبأمتك. وقد علمنا من قبل أن ثمة أنواعاً من العطايا، وهبها الله لنا، ولم يهبها لغيرنا من أمم الأنبياء السابقين. فاللهم اجعلنا ممن يسعدون بها.
7. في سبق الإعطاء منه في قوله **(إنا أعطيناك)** على الطاعة منا في قوله **(فصل لربك وانحر)** ما يفيد أنه سبحانه يريد أن يعيننا على الطاعة بالعطاء. فلا جرم أن النفس البشرية طماعة بطبيعتها، فيما أن الإلـٰه كريم بطبيعته.

ثالثاً/4: لطائف الإشارات:

تشير هذه السورة إلى مقامات السمو التي يمر بها العابدون، ونرتبها من الأدنى إلى الأعلى: الإيمان، ثم الإحسان، ثم الاتصال. فالمتصل هو في المقام الأسمى (الأول)، أما المحسن ففي المقام الثاني، فيما المؤمن في المقام الثالث.

---

[1]ــ انظر: مفاتيح الغيب. ج32. ص121ــ122.

فالسالك إلى الله تعالى له ثلاث درجات، تشير كل آية من السورة إلى واحدة منها[1]:

1. فـ**(إنا أعطيناك الكوثر)** تشير إلى الدرجة الأعلى والأسمى، درجة النبيين ومن هم في مقامهم ــ ممن لا نعلمهم ــ من أهل الأرواح القدسية، الذين استغرقوا بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله، فتميزوا باستغناء القلب عن مجرد رؤية المحسوس المشاهَد، لأنه ممتلئ بالموعود الغائب. فكأن أرواحهم تشبعت بالوعد الأخروي، فلم يعد لديها قدرة على قبول ما هو أدنى منه من المحسوس الدنيوي. وهؤلاء هم الواصلون: لأن الكوثر هو الكثير الذي لم يعط لغير المحبوب **r** وأمته: سواء كان ذلك نهراً خاصاً أو خيراً أعم.
2. أما **(فصلِّ لربك)** فتشير إلى الدرجة التي تليها: أن تشتغل بالطاعات والعبادات، فتلهيك عن نفسك ورغباتك وغدك، وتقنع بأقل القليل الذي يوصلك إلى الآخرة. وما ذاك إلا لأن اللام في قوله: (لربك) هي "للصلاة كالروح للبدن"[2]. وربما كانت هذه هي درجات الأولياء وكبار الصحابة وأمثالهم. وهؤلاء هم المحسنون. فعندما زار أمير المؤمنين عمر **t** أبا عبيدة بن الجراح **t** في الشام، ولم يجد لديه من الأثاث إلا حصيراً وليفة ووسادة خشنة، قال له: ألا اتخذت لنفسك ما تقيل عليه؟. فأجابه أمين الأمة **t** : يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المقيل[3].

---

[1] ــ انظر: مفاتيح الغيب. ج32. ص117ــ118.

[2] ــ مفاتيح الغيب. ج32. ص131.

[3] ــ انظر: خالد محمد خالد. رجال حول الرسول. ص339ــ310.

3. أما قوله عز وجل: **(وانحر)** فيشير إلى الدرجة الثالثة، وهي الأدنى في سلم السلوك: لأن "منع النفس من اللذات العاجلة، جارٍ مجرى النحر والذبح"[1]. وبذا تنتقل من عموم المسلمين إلى خصوص المؤمنين، وتكون قد بدأت في سلوك الطريق إلى الله، غير ناسٍ نصيبك من الدنيا. وهذه هي درجة أغلب المؤمنين الصادقين، في كل زمان ومكان.

والحاصل من كل ما سبق أن معنى الآيات: انشغل أيها الرسول ــ وأتباعك المؤمنين ــ بالطاعة، التي خُلقت لها، عن ترهات أقوال الشانئين السخيفة، التي خُلقوا لها؛ فقد كفيناكهم ولم نكفهم إياك، وأعطيناك وحرمناهم: كفيناكهم ببتر ذكرهم، ولم نكفهم إياك بتسليطك عليهم وملائكتنا. وأعطيناك إعلاء الذكر وامتداد النسل، وحرمناهم من خيري الدنيا والآخرة، فلا ذكر ولا نجاة.

ثالثاً/5: في لطيف قوله: (إن شانئك هو الأبتر):

هذا أسلوب حصر، أي لا أبتر في الحقيقة مثله: "فإنك إذا قلتَ: زيد هو العالم، يفيد أنه لا عالم غيره"[2]. فكل شانئ لك ــ يا أبا القاسم يا حبيبي ــ مقطوع الذكر في الأولى والآخرة، أما أنت فقد أعطيناك ذكراً في العالمين، مع كل آذان وصلاة؛ وجعلنا العلماء من أتباعك يملأون الأرض بنورنا والصلاة عليك. أما نسلك، فانظر كم هم، وكيف لم ينقطع ذكرهم على مر الزمان، رغم كل المذابح التي دبرها لهم شانئوك. وفي هذا

---

[1] ــ مفاتيح الغيب. ج32. ص118.

[2] ــ مفاتيح الغيب. ج32. ص133.

المعنى يقول الفخر الرازي رحمه الله: "فانظر كم قُتل من أهل البيت ــ عليهم السلام ــ ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية أحدٌ يُعبأ به. ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر العلماء، كالباقر والصادق والكاظم والرضا والنفس الزكية وأمثالهم"[1]، ممن نسأل الله أن يجمعنا بهم على الكوثر.

أرأيت كيف يسري رب العزة عن رسوله، ويسلي نفسه r ؟!.

ولأن من معاني الأبتر: غير ذي الذَنَب ــ كما أسلفنا ــ فقد رأى أهل العرفان أن بين الأبتر المقطوع الذنب، والعاصي الممنوع من الرحمة، لامتناعه عن الذنب، وجوه شبه. فلو افترضنا وجود الشخص الذي لا يذنب، لافترضنا بذلك عدم حاجته إلى الاستغفار. ومن أتعس من شخص لا يستغفر، ولا يشعر بحاجته إلى ذلك؟. إنه لقمين به أن يكون أبتر تماماً. وقد صح عن المعصوم r أنه قال: "والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم"[2].

وفي هذا يقول الشيخ الأكبر:

"ثم إن للذنْب من معنى الذَنَب صفتين شريفتين... ستر عورتها، وبه تطرد الذباب... وكذلك الذنْب، فيه عفو الله ومغفرته، وشبه ذلك مما... يطرد عن صاحبه أذى الانتقام أو المؤاخذة. وهما بمنزلة الذباب الذي يؤذي الدابة. فلا يصيب الانتقام إلا الأبتر، الذي لا

---

[1] ــ مفاتيح الغيب. ج32. ص124.

[2] ــ أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة t . حديث رقم395.

ذَنَب له... أي: لا عقب له... ينتفع به بعد موته، كما قال r : أو ولد صالح يدعو له"[1].

فانظر معي ــ يرحمك الله ــ إلى ما أعطاه الله لنبيه r في هذه الآيات الثلاث: من عظمة التكليم، ونعمة النسبة، واتساع العطاء، وإخلاص العبادة، وروعة الدعاء، وتسلية النفس. ألا ترى معي كم من السور الكبيرة اختصرت هذه السورة القصيرة؟!.

رابعاً: ليس في القرآن حرف زائد:

قيل بأن في القرآن بعض الكلمات أو الحروف الزائدة في مواضع، وأن فيه إطناباً لازماً في مواضع أخرى. والحق سوى ذلك تأكيداً؛ فلا زيادة في القرآن ولا نقص. وكل ما فيه إيجاز، يؤدي المعنى بأبلغ عبارة وأوجزها وأجملها، حتى لا ترى دون ذلك اقتراحاً لمقترح، إلا كان أدنى منه من ناحية من النواحي؛ إن لم يكن منها جميعاً.

إذن، فكل ما قيل من وجود إطناب لازم في القرآن هو كلام غير صحيح: لأننا إذا ما تمعنا في كل ما قالوا عنه إطناباً، وجدناه إيجازاً على الحقيقة، مقارنة بغيره. يقول أبو الحسن الرماني: "وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسنُ أكثر منها؛ فالإطناب حينئذ إيجاز، كصفة ما يستحقه الله من شكر على نعمه؛ فالإطناب فيه إيجاز"[2].

---

[1] ــ الفتوحات المكية. السفر الحادي عشر. ص62ــ63.

[2] ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص80.

وإنه لفي إمكانك أن تلاحظ معي بأن في قوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ، والعينَ بالعينِ، والأنفَ بالأنفِ، والأذنَ بالأذنِ، والسنَّ بالسنِّ، والجروح قصاص﴾(المائدة/45) إيجازاً؛ رغم ما قد تتوهمه فيه من إطناب: فلقد كان يمكن أن يتم التفصيل بطريقة تبين الفرق بين قتل العمد وقتل الخطأ، بحيث نعلم أن الثاني لا قصاص فيه. كما كان يمكن أن يبين أن العين اليمنى باليمنى... إلى آخر ما تكفلت السنة ببيانه.

وسنمثل على نفي الزيادة في القرآن بالأمثلة الآتية:

رابعاً/1: المثال الأول في قوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون)(البقرة/179):

تأمل في هذه الآية، ثم قل لي: هل ترى في نظمها الكريم حرفاً زائداً دون فائدة هنا، أم ترى نقصاً لحرف كان ينبغي أن يوجد، ثم تسبب غيابه في الإخلال بالمعنى المراد؟. فإن لم تجد ــ ولا أظنك واجداً ــ فقارن ما تراه من كلام التنزيل العزيز، بما كان أوجز كلام عند العرب في هذا المعنى: وذلك قولهم: (القتل أنفي القتل). ثم وازن بين القيلين. وسل نفسك إن كان ما جاءت به الآية أفضل؟.

أما أنا فأقول إنه لكذلك، ومن عدة وجوه هذا بعضها:

1. أن عدد حروف (القتل أنفى للقتل) هو أربعة عشر، فيما أن عبارة التنزيل العزيز التي تقابلها: (القصاص حياة) لا تحتوي إلا على عشرة أحرف.

2. أن القصاص ليس معناه مجرد القتل، فهو أعم وأشمل: إذ ثمة قصاص في القتل، وقصاص في الجروح، وقصاص في الضرب، على ما تم تفصيله في آيات أخرى[1]. فيما أن عبارتهم ــ القتل أنفى للقتل ــ لا تتطرق إلى هذا المعنى.
3. أن الآية تنص على أن الغرض ليس هو مجرد القتل؛ بل إن القتل في الآية ليأتي في ثوب القصاص، لحكمة كبيرة هي حفظ الحياة. أي أن الآية تنص على المطلوب، بهدف تحصيل شيء أكبر منه، وهو الحياة العامة. أما مقولتهم (القتل أنفى للقتل) فمبتسرة ناقصة المعنى، توهم بأن القتل مطلوب لذاته.
4. أن أفعل التفضيل موجودة في مقولتهم ــ وهي (أنفى) ــ وهي كلمة توهم الدعوة إلى المبادرة بالقتل. فأنت تعلم أن عبارة (القتل أنفى للقتل) قد تحيل إلى معنى: اقتل خصمك قبل أن يقتلك[2].
5. أن مجاز مقولتهم هو المطلوب لا حقيقتها؛ فهي من هذه الناحية تعاني من غموض، ناتج عن عدم وجود القرينة. ومعلوم أن كل مجاز يحتاج إلى قرينة تصرفه عن إرادة الحقيقة. فأي قتل هذا الذي هو إحياء للجميع؟. أهو مجرد فعل القتل ولو كان ظلماً؟. كيف هذا، والقتل ظلما أدعى إلى قتل مقابل؟. لا شك لدينا بأن كلامهم مقارنة بالآية "ناقص البيان، مختل المعنى، غير مكتف بنفسه في إفادة حكمه"[3].

---

[1] ــ اقرأ الآية 45 من سورة المائدة.

[2] ــ انظر: تفسير الألوسي. ج2. ص51.

[3] ــ أبو بكر الجصاص. أحكام القرآن. ج1. ص194.

6. أن في قولهم (القتل أنفى للقتل) تكراراً للفظ، مع أن المعنى واحد. وقد علمنا أن تكرار نفس المعنى يحتاج إلى لفظ آخر، لتتم البلاغة. ألم تر إلى بلاغة إلى قول عبيد بن الأبـــرص، يخاطـــب الملـــك الـــضليل: (أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً وميناً؟). ولو قال: (كذباً وكـــذباً)، لسقطت العبارة، ولما كان ثمة من بلاغة. أما الآية فقد انعـــدم فيهـــا التكرار كما ترى.

7. أن مقولتهم ليس فيها سوى ذكر القتل، رغم ما فيها من تكرار. فـــي حين أن ذكر كلمة القصاص في الآية أفاد حصول أمرين: القتل مـــن القاتل، ثم ما ترتب على ذلك من وقوع الحكم. "ألا ترى أنه لا يكون قصاصاً إلا وقد تقدمه قتل من المقتص منه؟"[(1)].

8. أن الآية جعلت القصاص حياة، بالتنكير الذي يفيـــد العمـــوم. فكـــل قصاص من قاتل هو حياة صريحة للمجتمع، وحماية له من جرائم قيد التنفيذ، لا يمنعها إلا علمها بأن العقاب الرادع في الانتظار؛ ثم حماية له من جرائم ثأر تليها، وتوقع المجتمع في دوامة الفوضى وانعـــدام القانون. في حين لم تتطرق مقولتهم (القتل أنفى للقتل) إلى الحياة، إلا بطريق المخالفة.

9. توفر الإيقاع الموسيقي في الآية: وهو إيقاع أنتجه الطباق بين كلمتي القصاص والحياة. وكل ذلك غير متوفر في عبـــارتهم. ومعلـــوم أن الطباق يعطي جمالاً إضافياً للكلام.

---

[1]ـــ أبو بكر الجصاص. أحكام القرآن. ج1. ص195.

نحن نلاحظ كل ذلك، وأكثر منه، حين نقرأ جزءاً من الآيــة فحــسب وهو: (القصاص حياة) فماذا يحدث فيما لو تلوناها تامة كما نزلت ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾؟.

إذن لسوف تتابع تحت أسماعنا فوائد أخرى كثيــرة، لا تحــيط بهــا مقولتهم، منها:

1. الربط بالتقوى: فالآية تربط القصاص بها، إغراءً بالعــدل الــدنيوي، لتحصيل ما هو أفضل منه في الآخرة: الجنة والرحمة. أرأيت كيــف يكون القصاص رحمة، رغم قسوته الظاهرة!.
2. الالتفات إلى أولي الألباب: فالآية لا تلتفت لغيرهم، لعلم الله I أن من لا لبّ له فلن يستفيد من الوعظ. فالتنزيل العزيــز يهمــل الحمقــى والمغفلين، الذين لا يرون أبعد من أنوفهم. وقد رأينا كيف فعل حمق المهلهل بقبيلته وأبناء عمومته!. ألا ترى كيف استهلت الآيــة بكلمــة (ولكم): التي تفيد التخصيص!. فكأن الآية أرادت أن تقول: أخــصكم ــ يا أولي الألباب ــ بهذا التوجيه السماوي، لتعلمــوا أن القــصاص حياة لكم أنتم، وليس لغيركم. أما من أراد الموت فهو ميت بالفعــل: ﴿إنما يستجيب الذين يــسمعون. والمــوتى يبعــثهم الله، ثــم إليــه يرجعون﴾(الأنعام/36).

فهل يوجد في كلام الفصحاء من البشر، ما يجمع مثل هــذه المعــاني الكثيرة بألفاظ يسيرة، لنقول إن من الممكن أن يأتي أحد بسورة من مثله!.

رابعاً/2: المثال الثاني في قوله تعالى:

﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً، حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابُها، وقال لهم خزنتها: ألمْ يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم، وينذرونكم لقاء يومكم هذا!. قالوا: بلى، ولكن حقت كلمةُ العذاب على الكافرين۝ قيلَ: ادخلوا أبواب جهنم خالين فيها، فبئس مثوى المتكبرين۝ وسيقَ الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَراً، حتى إذا جاؤوها، وفُتحت أبوابُها، وقال لهم خزنتها: سلام عليكم. طبتم، فادخلوها خالدين۝ وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرضَ نتبَوَّأُ من الجنة حيثُ نشاء. فنعم أجر العاملين۝ وترى الملائكة حافين من حول العرش، يسبحون بحمد ربهم. وقُضي بينهم بالحق، وقيل: الحمدُ لله رب العالمين﴾(الزمر/71ــ75).

أنت الآن تشاهد موقف المؤمنين والكافرين في عرصات القيامة بعد الحساب، حيث يساق كل فريق إلى مأواه: أما الكافرون فتسوقهم ملائكة العذاب، وأما المؤمنون فيسوقهم شوقهم إلى الله[1] الذي سوف يرون وجهه الكريم. وتلاحظ أن التنزيل العزيز قد قال، عند تطرقه إلى مصير الكافرين إلى جهنم: ﴿حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابُها﴾. فيما عبر عن مصير المؤمنين إلى الجنة بقوله: ﴿حتى إذا جاءوها، وفُتحت أبوابُها﴾؛ بزيادة الواو قبل الفعل (فُتحت) المتعلق بالمؤمنين. فلماذا كان ذلك كذلك؟.

---

[1]ــ انظر: تفسير الألوسي. ج24. ص32ــ34.

لقد أبعد النجعةَ من قال بأن الواو هنا زائدة، وضرب على ذلك الأمثال[1]. ولئن كان مقبولاً في كلام العرب أن يُزاد حرف هنا أو هناك، فليس مقبولاً تصديق حدوث ذلك في آي التنزيل العزيز. وما لجأ من قال بهذا إلا لحرصه على أن يتم السياقُ شروطَ الكلام ــ على ما هو معهود في الغالب ــ من وجود جواب الشرط بعد فعله. ولكن الحقيقة هنا غير ذلك، لأن الواو في حال المؤمنين آتية على أحد تقديرين، أو كليهما:

1. فأن شئت جعلتها حرف عطف، فعطفت (فُتحت) على (جاؤوها). فيكون من باب عطف الجملة على الجملة، لتأخذ حكمها. وبذا يكون تقدير السياق: (حتى إذا جاؤوا الجنة، وفتحت لهم أبوابها، وقالت لهم ملائكة الرحمة طبتم خالدين) جاء الجواب المحذوف، الذي من الممكن أن يكون تقديره: (سعدوا وطابوا) أو ما أشبهه[2].
2. وإن شئت اعتبرت الواو للحال، وقدرت بعدها (قد) محذوفة، فتكون الجملة التي جاءت بعدها حالية: أي جاءوها وقد فتحت أبوابها[3]. وقد ورد ما يؤيد هذا في قوله تعالى: ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾(ص/50).

وإذا كنا قد لاحظنا ــ في حالة الكافرين ــ وجود الجواب بعد (حتَّى) التي تفيد معنى الشرط[4]؛ فقد وجدناه محذوفاً عند وصف مآل المؤمنين. وحُقّ له أن يُحذف، وما من كلمات بقادرة على وصفه: ألا ترى أن

---

[1] ــ انظر تفسير ابن كثير. ج4. ص66.

[2] ــ انظر تفسير ابن كثير. ج4. ص66.

[3] ــ انظر: تفسير الألوسي. ج24. ص34.

[4] ــ انظر: تفسير الكشاف. ج5. ص325.

العرب إذا هولت أمراً توقفت عن وصفه استعظاماً!. ومن ذلك ما قاله الملك الضليل، عندما أحس بتساقط أعضائه بفعل السم الذي دُس له:

فلو أنها نفسٌ تموت جميعةً ولكنها نفسٌ تَساقطُ أنفسا

فحذف جواب (لو). وتقديره: (لكان أقل عذاباً).

ولقد كان من الممكن أن يلجأ السياق إلى حذفٍ مقابلٍ، عند تناوله للكافرين؛ لكن ذلك ما كان ليُبرز فضلَ المؤمنين، كما هو بارز الآن. إذ لا بد من حذف واحد لتتضح فائدته، بالمقارنة مع ما سواه. كما أن تخصيص المؤمنين بحذف بيان مآلهم هنا، يناسب سياق الآيات في السورة، إذ هو سياق نعمة كما ترى أكثر منه سياق انتقام. ويتضح ذلك أكثر من خلال تأمل الآية الأخيرة من السورة.

وبذا يمكن لنا رؤية الجنة مفتحة أبوابها، في انتظار القادمين المكرمين، الذين يدخر الله لهم بداخلها ما لا يمكن وصفه، كأنه يقول لهم: "أنتم المؤمنون الآمنون، وأنا الله المؤمن المهيمن. شققت لكم اسماً من أسمائي، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. أنتم أوليائي وجيراني وأصفيائي وخاصتي وأهل محبتي، وفي داري. سلام عليكم. يا معشر عبادي المسلمين، أنتم المسلمون وأنا السلام. داري دار السلام. سأريكم وجهي[(1)] كما سمعتم كلامي. فإذا تجليت لكم، وكشفت عن وجهي الحجب؛

---

[1]ـ إشارة إلى قوله r : "إذا دخل أهلُ الجنّةِ الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدُكم؟. فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهَنا؟. ألم تُدخلْنا الجنةَ وتنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجابَ، فما أُعْطوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم تبارك وتعالى". رواه مسلم والترمذي من حديث صهيب الرومي. انظر: جامع الأصول. ج10. الحديث رقم 8128.

فاحمدوني وادخلوا إلى داري غير محجوبين"[1]. وأنت ترى كيف يقف الكريم ــ في الدنيا ــ مفتحاً أبوابه في انتظار ضيوفه.

كما يمكن لنا رؤية حجم العذاب الذي يساق إليه الكافرون، وقد استقبلتهم الأبواب مغلقة، زيادة في الإذلال، مع أنهم يعلمون ما هو في انتظارهم من العذاب، الموشك على الوقوع بمجرد فتحها. دع عنك هول حجابهم عن وجه الرحمن الرحيم، بعد استقرارهم في الجحيم، ورؤيتهم ما توفر لغيرهم ممن هم مطلعون عليه. ﴿فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة: إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون المؤمنين، ويحسبون أنهم مهتدون﴾(الأعراف/30).

رابعاً/3: المثال الثالث في قوله تعالى: (ليس كمثله شيء)(الشورى/11):

في هذا المثال لا نجد أفضل من نقل ما قاله العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، فنثبته كما جاء، تيمناً وتبركاً ورجاء الفائدة.

قال الشيخ يرحمه الله:

"(أكثر) أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف، بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال العقلي، الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافيةً الشبيه عن

---

[1] ــ محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. السفر الخامس. ص79.

مِثل الله، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه...

(وقليل منهم) من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال، لا نصاً ولا احتمالاً: لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً....

ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه، محتفظاً بقوة دلالته، قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته. وأنه لو سقط منها، لسقطت معه دعامة المعنى، أو لتهدم ركن من أركانه. ونحن نبين لك هذا من طريقين، أحدهما أدق مسلكاً من الآخر:

(الطريق الأول) وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: أنه لو قيل: (ليس مثله شيء) لكان ذلك نفياً للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب. إذْ أن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه. وإذن لدبّ إلى النفس دبيب الوسواس والأوهام: أنْ لعل هناك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية، ولكنها تليها. وأنْ عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن والأوثان والكهان؛ فيكون لهم بالإلـٰه الحق شبهٌ ما، في قدرته أو علمه، وشركٌ ما، في خلقه أو أمره. فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاءً للعالم كله، عن المماثلة وعما يشبه المماثلة، وما يدنو منها. كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة. وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى، على حد قوله تعالى: ﴿فلا تقل

لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾(الإسراء/17)، نهياً عن يسير الأذى صريحاً، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى.

(الطريق الثاني) وهو أدقهما مسلكاً: أن المقصود الأوّليّ من هذه الجملة ــ وهو نفي التشبيه ــ وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: (ليس كالله شيء) أو (ليس مثله شيء)؛ لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة. بل إنها ــ كما تريد أن تعطيك هذا الحكم ــ تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته، وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة، في خُلُقه، فقلت: (فلان لا يكذب ولا يبخل) أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها. فإذا زدت فيه كلمة فقلت: (مثل فلان لا يكذب ولا يبخل) لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله، مبرأ من تلك النقائص؛ بل كان هذا تبرئة له هو، ببرهان كلي: وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة، لا يكون كذلك، لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات، وبين ذلك النقص الموهوم.

وعلى هذا المنهج البليغ وُضعت الآية الكريمة، قائلة: (مثله تعالى لا يكون له مثل). تعني: أن من كانت له تلك الصفات الحسنى، وذلك المثل الأعلى، لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه. فلا جرم جيء فيها بلفظين، كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة؛ ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهاناً: فالتشبيه المدلول عليه بالكاف، لما تصوب إليه النفي تأدَّى به أصلُ التوحيد المطلوب؛ ولفظ

المثل ــ المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره ــ نبه على برهان ذلك المطلوب.

واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية ــ على هذا الوجه[1] ــ برهان طريف في إثبات وحدة الصانع، لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله. فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدد، بإبطال لوازمه وآثاره العملية، حسبما أرشد إليه قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾(الأنبياء/22).

أما آية الشورى المذكورة، فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك، ينقض فرض التعدد من أساسه، ويقرر استحالته الذاتية في نفسه، بقطع النظر عن تلك الآثار. فكأننا بها تقول لنا: إن حقيقة الإلـٰه ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها. كلا، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي الناقص، أما الكمال التام المطلق الذي هو قوام معنى الإلـٰهية؛ فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والإثْنَيْنِيَّة، لأنك مهما حققت معنى الإلـٰهية، حققت تقدماً على كل شيء، وإنشاءً لكل شيء ــ فاطر السماوات والأرض ــ وحققت سلطاناً على كل شيء، وعلواً فوق كل شيء ــ له مقاليد السماوات والأرض ــ فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات، لتناقضت؛ إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً. فأنى يكون كل منهما إلـٰهاً، ولله المثل الأعلى؟!.

---

[1] ــ **أي الطريق الثاني في تدليل المؤلف على ضرورة حرف الكاف في قوله تعالى: (ليس كمثله شيء)**.

أرأيت كم أفدنا من هذه الكاف وجوهاً من المعاني كلها شافٍ كـــافٍ. فاحفظ هذا المثال، وتعرّف به دقة الميزان الذي وُضع عليه النظم الكريم، حرفاً حرفاً"[1].

فهل ترى الآن أن ثمة هناك حرفاً زائداً هنـــا، أو فـــي ســـائر آيـــات التنزيل؟. لا أظنك تفعل من بعد.

خامساً: علاقة اللفظ بباقي الألفاظ:

تأمل معي في كلمة (دافق) كما وردت في قوله تعالى:

﴿فَلْينظر الإنسان ممَ خُلق۝ خُلق من ماءٍ دافق۝ يخرج مـــن بـــين الصلب والترائب۝ إنه على رجعه لقادر﴾(الطارق/5ــ8).

هل تشعرها ثقيلة على لسانك، أم هل شعرت بأن حروفهـــا متزاحمـــة متراصة: تعالج إخراجها فلا تكاد تقدر إلا بمشقة؟. ثم قارن ذلك بما يفعله فصحاء البشر، الذين اصطلحوا على تقدمهم ذوقاً وفصاحة، لترى الفارق.

تأمل معي لفظة (ليلتنا) في بيت المتنبي:

أُحادٌ أم سُداسٌ في أحادِ لُيلتُنا المنوطةُ بالتّنادِ

ثم قل لي: هل تستطيع إخراجها دون كثير مشقة؟. ثـــم تأمـــل كيـــف جاورت هذه الكلمة ــ الثقيلة بذاتها ــ كلمـــة قريبـــة المخـــرج، وهـــي

---

[1] ــ النبأ العظيم. ص132ــ136

(المنوطة): حيث لم يكتف المتنبـي بكـل هـذه الحـروف المتـسارعة المتجاورة، في مخارج (لييلتنا)، حتى أتبعها بأل التعريف في (المنوطة)!.

ثم أرأيت كم هو ثقيل هذا البيت كله، بكل هذه الكلمـات المتعاظلـة: (أحادٌ) ثم (سداسٌ) بعدها (أحاد) مرة أخرى، لتدهمنا (لييلتنـا) تليهـا لام (المنوطة) فالتنادِ!. أي عجمةٍ تلوي كل لسان فصيح!. لكأننا أمام كـاهن يعزم على شياطينه من الجن، فتتأبى على إدراكه بما يهوى!.

وإذا كان الضد يُعرف بضده، فإن لك أن تتأمل الفرق بين جمال لفظة (دافق) ولين مخرجها، ومناسبة مكانها بين أخواتها في الآية؛ ثم تقارن كل ذلك بثقل لفظة المتنبي (لييلتنا) في بيت الشعر الذي نقلناه لك آنفاً[1].

أما الآن، فسأدعك تضرب عما ذكرنا صفحاً، لتنظر إلى لفظة (دافق) في الآية؛ فتحاول أن تبحث عن مرادف لهـا، يـسد مـسدها، ويقـضي حاجتها، في هذا المكان. وأنا زعيم بأنك غير واجدٍ، ولو أجهدت نفسك.

تأمل معي كم تحمل هذه اللفظة، في العربية، من المعاني المترافقة في آن:

1. المعنى الأول: يشير إلى القوة. أقصد قوة الجذب، المسببة لانـصباب الماء من الأعلى إلى الأسفل. وفي معنى القوة في الدفق. قال صاحب اللسان: "انصب. وقيل: انصب بمرة، فهـو دافـق: أي مـدفوق...

[1] ـ قال أبو بكر الباقلاني: "وحكي عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف، فدخل إليه بعض أصحابه، فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المكي على فصاحته كان مفحمـاً". إعجاز القرآن. 237

والاندفاق: الانصباب. والتدفق: التصبب... وقد أدفقت الكوز: إذا بددت ما فيه بمرة"[1].

2. والمعنى الثاني: يحيل إلى الكثرة والتزاحم. فكأننا في مواجهة السيل المنهمر. قال في اللسان: "دَفق النهر والوادي: إذا امتلأ حتى يفيض الماء من جوانبه. وسيل دُفاق، بالضم: يملأ جنبتي الوادي... الدُفاق: المطر الواسع الكثير... وجاؤوا دُفقة واحدة، بالضم: أي دفعة واحدة"[2].
3. والمعنى الثالث: يعبر عن السرعة، التي هي قرين الاستعجال والتلهف. "يقال: فلان يتدفق في الباطل تدفقاً: إذا كان يسارع إليه... وتدفقت الأُتن: أسرعت. وسير أدفق: سريع"[3]. ألم تر أن الماء يتدفق كما يتدفق الرجل إلى المرأة متعجلاً لحظة اللقاء!.
4. والمعنى الرابع: يقود إلى السبب. فهذا الدفق ناتج عن خروج الكثير من الماء من مكان ضيق. لكأننا أمام أنبوب يمر فيه الماء فيُضغط جانباه، تأميناً لوصول الماء إلى ما لم يكن واصلاً إليه، في العادة.

أرأيتك كم حملت هذه اللفظةُ من معانٍ!. فالماء المتسبب في الحمل ينصب، في العادة، من الأعلى إلى الأسفل. وعليه أن يكثر فيكفي لإخصاب الرحم، لأن القليل يكاد يتبدد في الطريق. ثم إن كل هذا الدفق ناتج عن انبثاق الماء، من بين صلب الرجل وعظام صدره، وهو مكان ضيق كما ترى.

1ـ لسان العرب. مادة: دفق.

2ـ نفس المصدر.

3ـ نفس المصدر.

والآن انظر إلى علاقة لفظة (دافق) بما حولها من كلمات أخرى في السياق. ثم تأمل المعنى العام للآية: ألا ترى معي أن لدينا هاهنا أموراً كلها رهق؟. فالقوة والكثرة والتزاحم كلها أمور لا يمكن لها أن تستمر طويلاً، كما تشهد بذلك علاقات الحياة: فالسيل لا بد له من مستقر. والقوي لا بد له من لحظة راحة، يستمد منها قواه مرة أخرى. والضيق يبحث عن الاتساع. والمتعجل لا بد له من ريثٍ آخر الأمر. ألا تلاحظ كم يتناسب الريث والسكون ــ الآتيان بعد السرعة والرهق ــ مع قوله تعالى: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾. فلئن كانت الحركة قرين الحياة المترائية في قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾؛ لقد ناسب أن يأتي السكون ــ وهو قرين الموت كما تعلم ــ بعدها، ممهداً لرجوع الإنسان إلى الحياة، وانبعاثه مرة أخرى للحساب.

تأمل كل ذلك ثم تفكر: هل ترى أنك مستطيعٌ أن تجد كلمة، تقوم مقام هذه الكلمة، في هذا السياق. ثم هبك وجدتها، فهل تستطيع أن تؤلف بينها وبين أخواتها، بطريقة تقارب شيئاً يشبه هذا التأليف؟. إذن لما أعجز الأمر كل فصحاء الجزيرة، ولما أدهش أصحاب المعلقات حتى هجروا معلقاتهم واتبعوه![1].

ومع كل ما سبق، فإننا لن نزعم بأن علة إعجاز القرآن كامنة في اللفظة وحدها، بل في سياقها العام في الآية، مضافاً إلى باقي الألفاظ في سياق السورة.

---

[1] ــ طلب عمر بن الخطاب t إلى واليه بالكوفة المغيرة بن شعبة أن يستنشد شعراء الكوفة ما قالوه من الشعر بعد إسلامهم. فكتب لبيد بن ربيعة ــ وهو من شعراء المعلقات ــ سورة البقرة. وقال: "أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر". انظر: الأغاني. ج15. ص358.

إن وقوع الكلمة بين الكلمات الأخرى في سياق الآية، هو الذي يمنح النص القرآني جماليته المتميزة. ولو افترضنا أن أي كلمة ــ مهما كانت مناسبة في جرسها ودلالتها ــ وردت في موضع آخر، أقل تناسقاً مع الكلمات الأخرى في النص، فلن تتوفر لها ــ ولا للنص ــ ميزة الجمالية، فضلاً عن الإعجاز. وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني: "وجملة، الأمر أنّا لا نوجب الفصاحة للفظةٍ مقطوعةٍ مرفوعةٍ من الكلام الذي هي فيه؛ ولكنا نوجبها لها موصولةً بغيرها، ومعلقاً معناها بمعنى ما يليها"[1].

ورغم كل ذلك تبقى هناك أسرار وأسرار، في هذه السورة، لا نعلمها. ولو يشاء الله لأكرمنا بتعليمنا منها ما يشاء، أو لعلّمها أحداً من عباده أكرم عليه من عبده الفقير. وإلا فمن هو الذي يستطيع الادعاء بأنه يعرف أسرار التنزيل!.

---

[1] ــ **عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص402.**

الفصل الرابع
في إعجاز الموضوع الواحد

أولاً: في كشف أحوال المنافقين:

أولاً/1: المثال الأول من سورة البقرة:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة/14).

وفي حكاية التنزيل العزيز لأحوال المنافقين هنا، نرى ما يأتي:

أولاً: أنهم لا يقابلون المؤمنين قصداً أو بعد سبق إصرار، فالتنزيل يقول: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾: فهي مجرد ملاقاة بين الطرفين، عن غير قصد، كأن ذلك يحدث في عرض الطريق أو في الأمكنة العامة. ومعلوم أن الفعل (لقي) يدل على المصادفة فقط. قال أبو السعود: "واللقاء المصادفة. يقال: لقيته، ولاقيته: أي صادفتهن واستقبلته"[1].

أما حين يصف الخطاب علاقة المنافقين بشياطينهم، فإنه يعمد إلى استخدام الفعل (خلوا) فالأمر ليس مجرد لقاء عابر، بل هو اختلاء قاصد من الطرفين، بهدف التآمر والكيد والاستهزاء. ووصلت خلو بـ(إلى) ـ

---

[1] ـ تفسير أبي السعود. ج1. ص46

وكان حقها أن توصل بالباء ــ لأنها فعل معادل لقول (لقوا) الذي يتصل في أصله بـــ(إلى)[1].

ثانياً: يأتي قولهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّـــا﴾، مجـــرداً عـــن التأكيد، أما حين يتعلق الأمر بحكاية أقوالهم لشياطينهم فإنها تـــأتي وقـــد سبقتها، وتخللتها، توكيدات متعددة، كما هو في الآية: ﴿وَإِذَا خَلَـــوْا إِلَـــى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون﴾. وبيان ذلك فيما يأتي:

1. أنهم استخدموا الجملة الفعلية في خطابهم للمؤمنين: (آمنا). ومعلوم أن الجملة الفعلية تفيد حدوث فعل عارض غير ثابت، لأنه متعلق بالزمن، خصوصاً في صيغة الماضي[2]. في حين أنهـــم اســـتخدموا الجملـــة الإسمية في قولهم لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون﴾؛ على ما هو مقرر في علم البلاغة من دلالة الجملة الإسمية على التحقـــق والثبات والدوام، كونها غير متعلقة بزمن[3].
2. أنهم لم يدخلوا على قولهم للمؤمنين (آمنا) أي أداة من أدوات التأكيد. وبذا فقد جاء كلامهم غفلاً عاماً سريعاً يفيد التردد، ومـــا ذاك إلا لأن خطابهم للمؤمنين ليس "جديراً بأقوى الكلامين، لأنهم كانوا في ادعاء حدوث الإيمان منهم، لا في ادعاء أنهم في الدرجة الكاملة منه: إمـــا لأن أنفسهم لا تساعدهم على المبالغة، لأن القول الصادر عن النفـــاق

---

[1] ــ انظر: تفسير ابن عطية. المجلد الأول. ص127.

[2] ــ يدل الفعل المضارع على الاستمرارية والتجدد لا على الثبات والدوام. قال العلامة الألوســـي فـــي تفسير سورة الفاتحة: "وقولهم: (المضارع يفيد الاستمرار)، أرادوا بـــه الاســـتمرار التجـــددي، فـــي المستقبل، لا في جميع الأزمنة". تفسير الألوسي. ج1. ص75

[3] ــ انظر كلاً من: تفسير الكشاف. ج1. ص184. ومفاتيح الغيب. ج2. ص76.

والكراهة قلما يحصل معه المبالغة؛ وإما لعلمهم بأن ادعاء الكمال في الإيمان لا يروج على المسلمين"[1].

3. أما عند قولهم لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون﴾؛ فقد استخدموا العديد من أدوات التوكيد وأساليبه، منها:

3/أ: تحقيق الخطاب بـ(إن) الثقيلة التي تسبق الكلام، مبالغة في تأكيد المقول.

3/ب: تكرار تحقيق التأكيد بـ(إن) الثقيلة المقترنة بـ(ما) الكافة في قولهم: (إنما).

3/ج: استخدام أسلوب القصر في قولهم: (إنما نحن مستهزئون) كما هو مقرر من أن الكافة والمكفوفة (إنما) تفيد اقتصار ما بعدها على معناه الظاهر، ولا تتعدى إلى أي معنى متوهم آخر: فالمنافقون ليسوا إلا مستهزئين من المؤمنين، أو هم مستهزئون فحسب. ولا يحتمل قولهم: (إنا آمنا) إلا وجهاً واحداً من وجوه المعنى، هو الاستهزاء لا غير. وهذا على قول من قال بأن (إنما) تفيد القصر. أما على قول من قال: (إنما) تفيد تأكيد الإثبات، فالأمر واضح ولا يحتاج إلى كثير بيان.

يقول الفخر الرازي:

"كيف تعلق قوله: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بقوله: ﴿إنا معكم﴾؟. الجواب: هو توكيد له؛ لأن قوله: ﴿إنا معكم﴾ معناه الثبات على الكفر. وقوله: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ رد للإسلام. ورد نقيض

---

[1]ـ مفاتيح الغيب. ج2. ص76.

الشيء تأكيد لثباته، أو بدل منه ــ لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ــ أو استئناف: كأنهم [أي شياطينهم] اعترضوا عليه حين قالوا: إنا معكم، فقالوا: إن صح ذلك فكيف توافقون أهل الإسلام؟ فقالوا: إنما نحن مستهزئون"[1].

أولاً/2: المثال الثاني من سورة الحشر:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾(الحشر/11ــ12).

دعنا الآن نتأمل هذه البلاغة السامقة، في حكاية أقوال المنافقين، المعبرة عن علاقتهم مع الكافرين من حلفائهم، بدقة متناهية؛ إذ تبقى العلاقة بين كل المنافقين وكل الكافرين دائمة، ومستمرة، ولازمنية، وعلى هذا المنوال، حتى تقوم الساعة، كما تدل على ذلك صيغة المضارع (يقولون).

لكن قبل ذلك علينا ألا ننسى أن القرآن الكريم قد وسم المنافقين بشدة الجبن والهلع، حتى كأنهم خشب مسندة على الجدران لا قيمة لها، كما جاء في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾(المنافقون/4).

---

[1]ــ مفاتيح الغيب. ج2. ص77.

1. نحن نعلم أن (إن)، التي جاءت بعد اللام الموطئة للقسم، هي إن الشرطية، التي تفيد تأكيد حدوث الجواب إذا ما وقع الفعل. أي أننا نحصل من اقتران إن هذه مع اللام على توكيدين، أحدهما يفيده القسم والآخر يفيده الشرط.
2. كما نعلم، من واقع الحياة، أن الخروج من الوطن ــ خصوصاً لدى الجبناء ــ هو أقل وطأة من القتال المؤدي إلى الموت.
3. والمنافقون لا يتخلون عن نفاقهم، حتى في تعاملهم مع حلفائهم وإخوانهم في الكفر، وذلك حين يوهمونهم بأنهم معهم على كل حال، فيما الأمر في الحقيقة هو خلاف ذلك تماماً. وتفصيل هذا ــ كما ورد في هذا البيان المعجز ــ كالآتي:

3/أ: إذا تعلق الأمر بتعرض اليهود للنفي (الإخراج) وجدنا المنافقين الجبناء يقدمون بياناً لغوياً كامل التأكيد، يحتوي على كل من (إن) التي تفيد التأكيد بذاتها، واللام التي تفيد القسم: (لئن أُخرجتم لنخرجن معكم)، ثم يدفعون أي شبهة تعترض الوفاء بالوعد بالنفي، في قولهم بعد ذلك مباشرة ودون فاصل: (ولا نطيع فيكم أحداً أبداً). فالوعد على هذا مؤكد بأربعة عوامل مجتمعة: التأكيد والقسم ورفض المساومة والتأبيد. هذا هو خطاب المنافقين، في وعدهم لحلفائهم اليهود، فيما إذا تعرضوا للنفي من الوطن. وما ذلك إلا لأن القبول بالنفي ــ في وعي الجبناء ــ مقدور عليه. ألا ترى أنهم يعرفون قدراتهم، فيعقدون معاهدة يمكنهم الوفاء بها جزماً، لو صدقوا. ولكن متى كان المنافق صادقاً حتى مع حلفائه!.

3/ب: أما إذا ما تناول أحد بنود المعاهدة الحديث عن القتال، فإننا نرى كيف يتلجلج خطاب المنافقين، فيصوغون بند التحالف بطريقة ماكرة، تشي بمدى خشيتهم للتضحية والقتال. فلا جرم أن القتال عندهم أشد من النفي. من هنا ترى خطابهم لحلفائهم ــ عن احتمال وقوع القتال بينهم وبين المسلمين ــ يوهم بأن نصرتهم ستكون كاملة. لذا فقد ناسب أن يلقي التنزيل العزيز هذا التركيب البياني المعجز على ألسنتهم: (وإن قوتلتم)، ليفضح للمتأمل أن مثل هذه النصرة، إن حدثت، فلن تكون إلا مجرد نصرة كلامية، لا غير. من هنا فقد جاءت صيغة (وإن قوتلتم) لتشي بأنها ليست إلا بنداً صاغه الكثير من التردد: إذ اكتفى منشئوها بحرف التوكيد (إن) دون يقرنوها بلام القسم الظاهرة.

لكن مكر المنافقين بالحلفاء يبلغ أوجه، حين يحاولون أن يتحايلوا على هذا الفهم السليم، للغتهم المخاتلة، بقسم آخر في قولهم: (لننصرنكم)؛ فتأتي لام القسم هنا سابقة للفعل (ننصركم)، ثم تأتي نون التوكيد الثقيلة في بنية الكلمة نفسها على هذه الشاكلة: (ننصرنكم)، لتغدو الكلمة من بعدُ: (لننصرنكم). لكن هذا القسم الجديد يأتي متأخراً مقترناً بالجواب، لا بالقسم ذاته. والفرق بين الخطابين واضح جلي: حيث كان الابتداء بالقسم هناك قبل الكلام، أما هنا فقد جاء متأخراً.

3/ج: ورغم هذا النقص، الذي يعتور توكيد المنافقين لليهود بالقتال معهم، فإن التنزيل العزيز لا يحكي عنهم أي دفع لأية شبهة تعترض وفاءهم بالوعد، على خلاف ما كان عليه الأمر في قولهم في السابق: (ولا نطيع فيكم أحداً أبداً). لكأنهم يلغمون خطابهم

بألغام الاحتمال: احتمال أن يطيعوا فيهم أيّاً من الناس، فلا يقاتلوا معهم. ولا جرم، فالوعد بالقتال غير الوعد بالخروج. وعداوة رسول الله r الظاهرة بالقتال مع أعدائه، ليست كعداوته المخفية بالمناوأة والتحريض. فالقتال مع اليهود يقتضي هجرة دائرة النفاق التي تحفظ الحياة. "وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر، لجواز أن يدّعوا [أي المنافقين] أن خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية، لا للموافقة في الدين"[1].

من هنا تتبين لنا دقة الإعجاز في قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُون﴾. يقول ابن كثير: "أي: لكاذبون فيما وعدوهم به، إما أنهم قالوا لهم قولا من نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه"[2]. ونحن نرجح القول الأول. والله أعلم.

كما يتبين تميز الخطاب الإلٰهي، عن خطاب المنافقين، في استمرار سبق (إن) باللام في ثلاثة مواضع من قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُون﴾، دلالة على الثقة التامة، بصدق ما يخبر به رب العزة l ، من رسوب المنافقين في امتحان الصدق، في المستقبل القريب. وبذا يتضافر أسلوب الكلام الإلٰهي مع معناه، فيما يختلف أسلوب المنافقين مع معناه، كما أسلفنا.

---

[1] ــ تفسير أبي السعود. ج8. ص230.

[2] ــ تفسير ابن كثير. ج4. ص340

أما لماذا جاءت الأفعال غير مجزومة في قوله: ﴿لاَ يَخْرُجُون﴾ و﴿لاَ يُنصَرُون﴾، فـ"لأنها راجعة على حكم أنفسهم، لا على حكم الــشرط"[1]: أي أن التنزيل العزيز يشير إلى نيتهم غير المعلنة وهم ينشئون العقد مــع حلفائهم. وربما كانوا يقسمون علناً على الوفاء، ففضحهم التنزيل العزيــز بأن بين أن هذا القسم منهم ليس شرطاً حقيقياً. إذن فظاهر العقد يــوحي بالشرطية، في حين أن حقيقته تشي بالقسم الكاذب، "لأن القاعدة أنــه إذا اجتمع قسم وشرط، فالجواب للسابق منهما"[2].

أولاً/3: المثال الثالث من سورة المنافقون:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّــكَ لَرَسُولُهُ. وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(المنافقون/1).

أولاً/3.أ: بين الشهادة والعلم:

المنافقون يشهدون: أي يحلفون[3]. أما الله I فيعلم. وما الــشهادة فــي الحقيقة إلا مجرد إخبار عن علم، أو يمين بحصول ذلــك العلــم. فــالعلم أصل، والشهادة فرع: إذ يُتوصل إلى العلم بالشهادة. فكيف إذا حصل العلم ثبوتاً ويقيناً؟.

إذن فلا حاجة للشهادة؛ لأن من حصل له أمر، ورآه يحدث بعينه، فقد تحقق له العلم بحدوثه. وهو في ذلك لا يحتاج إلى أن يشهد أمامه أحــد،

1ــ تفسير ابن عطية. المجلد الثامن. ص270.

2ــ محمد الأنطاكي. المنهاج في القواعد والإعراب. ص255

3ــ انظر: مختار الصحاح. مادة: شهد.

بأن ذلك الحدث قد حدث. ولو حدث أن شهد أمامه شخص ــ شهادة مشفوعة باليمين ــ على عكس ذلك، لما صدقه. وكيف يصدق عكس ما رأت عيناه!.

يتحصل لنا، من كل ما سبق، أن الشهادة مجرد إخبار ــ قد يكون مقروناً باليمين ــ على حدوث ما يقول الشخص إنه قد حدث. أما العلم، فإنه الحدوث الحقيقي. لأن العلم معرفة حقيقية، ودليله من نفسه، وليس مستمداً من أمر خارج عنه؛ فيما الشهادة مجرد دليل ظني، أو وسيلة دنيوية، لبلوغ العلم. ألا ترى أن القاضي يحدث له علم ظني، بحدوث الحادثة، حين يشهد أمامه بذلك الشهود[1]؟. أما الذي رأى الحادثة بعينه، فقد حدث له العلم اليقيني. هكذا هو الأمر في معنى هذه الآيات. والله أعلم.

لقد سمع الفتى[2] المنافقين ينالون من رسول الله **r** وأصحابه **y**، فشهد بما علم. ولأن الشهادة مجرد إخبار ظني، فقد توقف الرسول **r** في القطع بصحتها. ورغم ذلك فلم يتشكك الغلام أبداً، حتى جاءه التصديق من السماء. روى البخاري عن زيد بن أرقم **t** قال:

"لما قال عبد اللّه بن أُبّيٍ: لا تُنْفِقُوا عَلَى من عندَ رسولِ اللّه، وقال أيضا: لئن رَجَعْنَا إلى المدينَةِ، أَخْبرتُ به النبي **r**، فَلامَني

---

[1] ــ لقد تقرر في أصول الفقه أن كل علم ثبت بطريق الآحاد فهو علم ظني تقوم به الأحكام الشرعية. أما العلم القطعي فلا يثبت إلا بالخبر المتواتر. انظر في هذا: عبد الوهاب خلاف. علم أصول الفقه. ص43.

[2] ــ هو الصحابي الجليل زيد بن أرقم رضي الله عنه. وكان صغير السن عندما حدثت هذه الحادثة في غزوة بني المصطلق.

الأنصارُ،وحلفَ عبدُ اللّه بن أُبَيٍ ما قال ذلك. فرجعتُ إلى المنزل، فنمتُ، فأَتاني رسولُ اللّه r ، فأَتَيْتُه، فقال: إنَّ اللّــهَ قــد صَــدَّقَكَ، فنزلت: ﴿هم الذين يقولُونَ: لا تُنْفِقُوا على من عِندَ رسولِ اللّه حتى يَنْفَضُّوا﴾"[1].

المنافقون يشهدون. أما الله فيعلم. وأين العلم مــن اليمــين؟. منتهــى الإيجاز والتكثيف وفصل القول.

أولاً/3.ب: في شدة حاجة الكاذب إلى زيادة التوكيد:

ولا شك أن الكاذب محتاج دائماً إلى الأيمان المغلظة ــ كما نرى مــن حاله بيننا ــ لأنه يريد أن يؤكد للسامع صحة كلامه، لما يشعر به من أنه غير مصدق. لكأنه خاض تجارب كاذبة عديدة مع النــاس، فعلــم أنهــم يعلمون من نفسه ما يعلم. ولشعور الكذوب بأن أسلوب التوكيد غير كاف، تراه يشفعه بالقسم. وهكذا نرى المنافقين في السورة يؤكــدون شــهادتهم بــ(إن) واللام معاً، في قولهم: ﴿إنك لرسول الله﴾، ليجمعوا بين توكيدين: توكيد القسم الذي تؤذن به لام القسم، وتوكيد إن المشددة. ورغم ذلك يبادر العليم الخبير إلى اعتراض كل هذه التوكيدات الكاذبــة، بإثبــات ظــاهر منطوقها، بجملة اعتراضية غاية في الإيجاز المستعلي: ﴿والله يعلم إنــك لرسوله﴾، قبل أن ينفي صدقهم في ادعائها، ويشهد على كذب ألسنتهم، في قوله: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾. فالكلام في أصله صحيح، ولو كان المتكلم به كاذباً في ادعائه.

---

[1] ــ جامع الأصول. ج2. الحديث رقم849.

ليس ذلك فحسب، بل إن كل هذه التوكيدات والأيمان لا تزال تتكـــرر. تؤذن بهذا (إذا) الشرطية التي تدل على المستقبل[1]، وجوابهـــا (قـــالوا). و(إذا) هنا تفيد الاستمرار. فكلما جاءك ــ يا رســـول الله ــ المنـــافقون، قالوا كذا وكذا. كأنهم يواصلون المجيء، ويواصلون الحلـــف والـــشهادة الكاذبة، يومياً!.

ثانياً: الصورة في القرآن الكريم:

لعل جمال الإعجاز في سور التنزيل، يتبدى بوضوح في قدرة القرآن على تحويل الألفاظ المقولة إلى صور محسوسة، حتى لكأنك ترى حركة الأحياء أمام عينيك وملتقى سمعك. وعلى ذلك نمثل بالآتي:

ثانياً/1: بين كلب وكلب:

فلنأخذ كلمة (الكلب) في التنزيل العزيز، ثم فلنتأمل كيف اختلف حـــال كلب عن كلب. وما من خلاف في الحقيقة سوى اختلاف النظم ووضـــع الكلمة بين الكلمات:

ثانياً/1.أ: المثال الأول من سورة الأعراف:

إذ ترسم الآيات صورة من أوتي علماً وإيماناً، فكان حقـــه أن يرتفـــع بهما، لولا خسرانه نفسه، وانقلابه على عقبيه مرتداً، يستبدل كلمـــات الله بقليل المتاع. يقول تعالى:

---

[1] ــ انظر: معترك الأقران. ج2. ص49. وتفسير المنار. ج1. ص136.

﴿واتلُ عليهم نبأَ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين۝ ولو شئنا لرفعناهُ بِها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمَثَله كَمَثَلِ الكلب: إِن تحملْ عليهِ يلهثْ أَو تتركْه يلهثْ. ذلك مَثَلُ القومِ الذين كذُبوا بآياتنا. فاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلهم يَتَفَكرون﴾(الأعراف/175ــ176).

إنه كلب يلهث على كل حال!. وحُق له أن يكون على هذه الصورة القبيحة، وهو الذي كان متوقعاً منه الخير، جزاء ما وصل إليه من الخير. ولو تأملت في حال علماء السلطان، الذين يبيعون الفتاوى في كل عصرٍ، لرأيت تحقق هذه الصورة فيهم.

إنه كلب لاهث ولا شك. وأنت ترى ذلك وتسمعه، وتشدك روعة تصوير الآيات له. ألا وإن جمال الصورة هنا لا ينبع من مادتها، بل من يد الإبداع التي أنشأتها وصورتها وجعلتها معجزة في الجمال والبلاغة. هذا رجل قد جاءته الأنوار وغمرته، حتى تخللت عظامه. لكن نداء الدنيا غلبه، فانسلخ منها. وأنت تلاحظ كم كانت شدة اندماج الآيات بجسده، من قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها﴾، لأن الانسلاخ يقتضي صعوبة في انشقاق الجزء عن الكل.

إن من شأن الآيات أن ترفع صاحبها مادياً إلى السماء والفردوس الأعلى، ومعنوياً إلى طيب الذكر والقدوة الحسنة والصورة الجميلة. أما وقد انسلخ الرجل منها بكل إصرار، متحملاً ألم الانسلاخ، فقد علمنا أنه اختار السقوط بمحض إرادته، كما لو كان خلداً يعاف الفضاء الواسع،

فيهرب منه إلى الجحر الضيق. فشتان ما بين مرفوع وهابط!. لكنه مجرد كلب. بل إن من الكلاب لمن هو أرفع درجة منه. فأي قذارة وأية دناءة!.

ولئن كان هذا هو حال العالم الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، في الدنيا؛ فليكونن حاله في الآخرة أشد نكالاً. قال رسول الله r : "مَنْ تعلم علما مما يُبتغَى بِه وجهُ اللهُ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضا مِن الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة"[1].

ثانياً/1ـ ب: أما المثال الثاني فيواجهنا في سورة الكهف:

حيث نشاهد صورة مختلفة لكلب مختلف. ولئن تقرر أن قدر المخلوقات في ميزان الله متعلق بمدى اتساقها مع منهاج الله؛ فلقد نرى الكلب في مكان آخر طالعة علينا صورته بكثير من الإيناس والإلفة والجمال.

تأمل في قوله تعالى:

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود. ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. لوِ اطَّلَعْتَ عليهِم، لَوَلَّيْتَ مِنهم فراراً، ولملِئتَ منهم رعبا﴾(الكهف/18).

ها أنت ذا تتطلع إلى باب الكهف دون أن تتجرأ على الدخول. وها أنت ترى كلباً أنيساً نائماً في هدوء، وقد فرد ذراعيه بالباب، كأنه يحرس

---

[1]ـ أخرجه أبو داود من رواية أبي هريرة. انظر: جامع الأصول. ج4. الحديث رقم2648.

الفتية المؤمنين. أليس هذا كلباً قريباً من القلب!. تأمل ذلك ثم قل لي: لـــم هو لا يلهث؟. لأن صورة الكلب وهو لاهث هي صورة قبيحة في عرف الإنسان، أما صورة الحيوان الأليف الوادع الوفي، فهـــي ذي الـــصورة، وعلى هذا الوضع.

ألا ترى الفرق بين كلب وكلب!.

ثانياً/1.ج: فيما يحملنا المثال الثالث من سورة المائدة إلى صورة كلب آخر:

كما ظهرت في قوله تعالى:

﴿يسألونك ماذا أُحلَّ لهم. قل أُحلَّ لكم الطيبات، ومـــا علَّمـــتم مـــن الجوارح[1] مُكَلِّبِين: تعلمونهن مما علمكم الله. فكلوا ممـــا أمـــسكن علـــيكم، واذكـــروا اســـم الله عليـــه. واتقـــوا الله، إنَّ الله ســـريع الحساب﴾(المائدة/4).

ألا ترى هنا كلباً صديقاً ودوداً يسارع في رغبة صاحبه، ويعينه على الصيد، ثم لا ينجس صيده بتناول شيء منه؟. أم هو خير من هذا الـــذي انسلخ من آيات ربه، مقابل منفعة دنيوية قليلة وزائلة!.

---

[1] ــ يقول الزمخشري: "والجوارح: الكواسب من سباع البهائم والطير، كالكلب والفهد والنمر والعقـــاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلِّب مؤدب الجوارح ومضربها بالصيد لصاحبها، ورائضها لذلك بمـــا علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف. واشتقاقه من (الكلب) لأن التأديب أكثر ما يكون في الكـــلاب، فاشتق من لفظه لكثرته من جنسها". تفسير الكشاف. ج2. ص197.

وبعد، فهل رأيت كيف يرسم لنا التنزيل العزيز صور كلاب ثلاثة: أما أقذرها فهو لاهث منسلخ من الخير، تقذره النفس، وتحقره المشاعر. ومع ذلك فهو في الأصل إنسان، من سلالة هذا الذي كرمه الله وحمله في البر والبحر وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا!. ولكن الكلبين الحقيقيين كليهما أفضل منه. أما أحدهما ــ وهو كلب أصحاب الكهف ــ فأفضل منه بما لا يقاس، وأما الآخر فأفضل منه من ناحيتين: معرفته الفطرية بربه الحقيقي، ثم معرفته الجميلة والممتنة بمعلمه البشري.

ثلاثة كلاب!. لكن النظم القرآني ــ بوضعه الكلمة بين الكلمات ــ يعيد إنشاء علاقات المجاورة فيما بينها، فتتحول إلى صور نابضة بالحياة والحركة.

ثلاثة كلاب، ولكن الإنسان المنسلخ من آيات الله أقلها شأناً، وأبأسها مصيراً، وأبشعها صورة.

ألا ترى كم هو متحرك هذا التصوير القرآني!.

ثانياً/2: سجود الكفار:

﴿والنجم إذا هوى۝ ما ضلّ صاحبكم وما غوى۝ وما ينطق عن الهوى۝ إن هو إلا وحيٌ يوحى۝ علّمه شديد القوى۝ ذو مِرّةٍ فاستوى۝ وهو بالأفق الأعلى۝ ثم دنا فتدلى۝ فكان قاب قوسين أو أدنى۝ فأوحى إلى عبده ما أوحى۝ ما كذب الفؤادُ ما رأى۝ أفتمارونه على ما يرى۝ ولقد رآه نزلةً أخرى۝ عند سدرةِ

المنتهى۞ عندها جنةُ المأوى۞ إذ يغشى السدرةَ ما يغشى۞ ما زاغَ البصرُ وما طغى۞ لقد رأى من آياتِ ربه الكبرى﴾(النجم/1ــ18).

يقسم الله **l** بالنجم إذا هوى. ولقد يكون النجم هو الثريّا أو الشِعرى أو الزُهرة ــ وكلها أثيرٌ عند العرب ــ وقد يكون سقوطه يوم القيامة وانكداره، أو هويّه للنيل من الشياطين حين يسمّعون إلى الملأ الأعلى... أو غير ذلك.

لكن أيا ما كان هذا النجم وهذا الهويّ، فنحن نعلم أن الله يقسم بما شاء، وليس ذلك لغير الله. وما يهمنا هنا هو جواب القسم: وهو صدق محمد **r** فيما بلغ عن ربه عموماً، وفيما أخبر عما رأى في معراجه إلى السماء ليلة الإسراء. فكما أنه **r** رأى الآيات بفؤاده ــ والفؤاد أصدق من البصر ــ فقد أخذ هذا القرآن من جبريل **u** تنزيلاً من عند الله.

ثم تتطرق الآيات إلى وصف جبريل **u** باعتباره المعلم الذي ينزل بالوحي من عند الله، فتصفه بالقوة والاستواء، أمام الرسول **r** ــ على الخلقة التي خلقه الله عليها ــ مرتين: واحدة في الأرض بالأفق الأعلى، وأخرى بالمعراج عند سدرة المنتهى، حيث توقف عند رتبته التي لا يتجاوزها، وتقدم محمد **r** إلى مراتب لم يصلها مخلوقون، فرأى من آيات الله الكبرى ما شاء الله له أن يرى، وأخذ عن الله مباشرة دون واسطة، كما يتضح لنا من قوله سبحانه: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾.

أنت تلاحظ ذلك الإيقاع الموسيقي الذي يسم هذه الآيات. كما أنك تلاحظ كثافة الصور الحسية في هذا المفتتح: فالنجم يهوي من حالق،

والملك الأمين يدنو ويتدلى فيملأ الأفق، وسدرة المنتهى تتغشاها آيات من الرحمة تجل عن النعت؛ إذ "النعت للأشياء تقييد وتمييز"، كما يقول الشيخ الأكبر[1]. وهيهات لمن ملأ نوره أركان عرشه أن تتقيد آيات رحمته أو تتميز؛ خصوصاً في هذا المكان الأسمى. إنها صور

"تشع من المجال العلوي، الذي تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية... ومن الحركات الطليقة للروح الأمين، وهو يتراءى للرسول الكريم. والصور والظلال والحركات والمشاهد والجو الروحي المصاحب، تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيري وتمتزج به، وتتناسق معه، وتتراءى فيه، في توافق منغم عجيب. ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله، ويترك آثاره في مقاطعها التالية، حتى تختم بإيقاع موحٍ شديد الإيحاء، مؤثرٍ عميق التأثير. ترتعش له كل ذرة في الكيان البشري وترف معه وتستجيب"[2].

إننا أمام مشهدين شاخصين وإيقاع مواكب، مهمتهما تأمين حيوية المطلع. فلا يستمع مستمع إلى هذا القول إلا ويشخص ببصره، ويلقي بقلبه بين يديه، منتظراً ما يأتي من بعد. فماذا يأتي من بعد؟. تسخيف الآلهة المدعاة. وهي ــ يا للطرافة ــ أناث في غالبيتها!. ومع أن عابديها يفضلون الذكر على الأنثى، إلا أنهم لا يخجلون من الادعاء بأن هذه الإناث المعبودة هي بنات الله!.

---

[1] ــ انظر: محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. السفر الثالث عشر. ص509.

[2] ــ سيد قطب. في ظلال القرآن. ج6. ص3405.

﴿أفرأيت الذي تولّى۞ وأعطى قليلاً وأكدى۞ أعنده علمُ الغيب فهو يرى۞ أم لم يُنَبّأ بما في صحف موسى۞ وإبراهيمَ الذي وفّى۞ ألا تزرُ وازرةٌ وِزر أخرى۞ وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سعى۞ وأن سعيه سوف يُرى۞ ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى۞ وأنّ إلى ربك المنتَهى۞ وأنه هو أضحك وأبكى۞ وأنه هو أمات وأحيا۞ وأنه خلق الزوجين الذكرَ والأنثى۞ من نطفةٍ إذا تُمنى۞ وأن عليه النشأةَ الأخرى۞ وأنه هو أغنى وأقنى۞ وأنه هو رب الشِعرى۞ وأنه أهلك عاداً الأولى۞ وثمودَ فما أبقى۞ وقومَ نوحٍ من قبلُ إنهم كانوا هم أظلمَ وأطغى۞ والمؤتفكةَ أهوى۞ فغشّاها ما غشّى۞ فبأي آلاء ربك تتمارى۞ هذا نذيرٌ من النُذُرِ الأولى۞ أزِفت الآزفة۞ ليس لها من دون الله كاشفة۞ أفمن هذا الحديث تعجبون۞ وتضحكون ولا تبكون۞ وأنتم سامدون۞ فاسجدوا لله واعبدوا﴾(النجم/33ــ62).

فإذا انتقلنا إلى الخاتمة، رأينا الآيات ترسم صورة شخص بعينه، فتحضره إحضاراً، وتشخصه تشخيصاً، حتى نكاد نراه بأعيننا وهو يتولى من بعد ما جاءه الهدى، فيتوقف عن الإعطاء والصدقة، كما لو كان يعلم ألا فائدة تُرجى من البذل، ولا عذاب يُخشى من المنع. ألم يأت هذا المتولي المكدي أخبارُ الكتب السابقة، القاضية بأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وأن من يعمل مثقال ذرة شراً يره، وأن نهاية الإنسان لا بد آتية فيعود إلى ربه، مهما طال به العمر والغنى والقوة والسيادة؟. ثم ألم يأته أن الله هو الذي يضحك ويبكي ــ لا الآلهة المدعاة ــ وأنه هو الذي يميت ويحيي، وأنه كما خلق الإنسان من نطفة صغيرة، قادر على إعادة خلقه مرة أخرى. وأنه هو الذي يغني الناس ــ من دون هذه الآلهة

المدعاة ـ ويرزقهم ما يقتنون، وأنه هو رب الشعرى التي بها يهتدون أو يعبدون!.

هكذا نرى كيف تتلاحق الصور والمقاطع الموحية المشخصة، حتى إن السامع ليكاد يلهث من شدة الجري وراءها ومتابعة حركتها. ولا يكاد يبلغ المضمار غايته اللاهثة، حتى يتصاعد الإيقاع وتتصاعد اللهجة، فنرى انسجام المعاني مع الموسيقى فيما يمكن تشبيهه بطبول الحرب:

﴿وأنه أهلك عاداً الأولى۩ وثمودَ فما أبقى۩ وقومَ نوحٍ من قبلُ إنهم كانوا هم أظلمَ وأطغى۩ والمؤتفكةَ أهوى۩ فغشّاها ما غشّى...﴾.

وإنها لحرب لو كانوا يعلمون!. حرب على من يتمارى، ونذير بوشك وقوع الصاعقة:

﴿أزِفت الآزفة۩ ليس لها من دون الله كاشفة۩ أفمن هذا الحديث تعجبون۩ وتضحكون ولا تبكون۩ وأنتم سامدون۩ فاسجدوا لله واعبدوا﴾.

فهل يملك القوم إلا أن يسجدوا!.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: "أن رسولَ الله r سجد بـ(النجم)، وسجد معه المسلمون والمشركون، والجنُّ والإنس"(1).

---

1 ـ انظر: جامع الأصول. ج5. الحديث رقم3794 .

قهرهم هذا التنزيل العزيز، وسلبهم من أنفسهم، فسجدوا رغم أنـــوفهم، كما تسجد الجمادات المسخّرة. ولو كانت لهم عقول لاختـــاروا الكرامـــة، وسجدوا فهماً ووعياً، واستجابة وحباً. ولكن ﴿لهم قلوب لا يفقهون بهـــا، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام، بل هم أضل. أولئك هم الغافلون﴾(الأعراف/179).

أرأيت غفلة أكبر من أن يسجدوا وهم لا يؤمنون؟.

لكنه الإعجاز في أعظم صوره!.

ثانياً/3: جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم:

أما الآن فتعال معي نتأمل سوياً هذه الآيات من سورة فصلت ــ وهي سورة مكية مما أنزل على محمد **r** قبل الهجرة ــ لنرى ماذا فعلت بمـــن ألقى إليها سمعه للوهلة الأولى. يقول تعالى:

﴿حم۩ تنزِيلٌ من الرحمنِ الرحيم۩ كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عربِياً لقومٍ يعلمون۩ بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرهم فهـــم لا يـــسمعون۩ وقالوا: قلوبنا في أكنّةٍ مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقرٌ، ومن بيننا وبينك حجاب. فاعمل، إنا عاملون۩ قُلْ: إِنَّما أنا بشرٌ مثلكم يُوحَى إِلَيَّ؛ أَنَّما إِلـــٰهكُم إِلـــٰهٌ واحد. فاستقِيموا إِليه واســـتغفروه. وويـــل للمشركين۩ الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كـــافرون۩ إِنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون۩ قُـــلْ أَئِـــنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خلق الأرض في يومين، وتجعلون له أنداداً، ذلـــك رب العالمين۩ وجعلَ فِيها رواسِيَ من فوقها، وبارك فيها، وقـــدّر

فيها أقواتها في أربعة أيام، سواءً لِلسائلِين؟۩ ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا: أتينا طائعين۩ فقضاهُنَّ سبعَ سماوات في يومين، وأوحى في كل سماءٍ أمرها. وزيَّنّا السماءَ الدنيا بمصابيح وحفظاً. ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليم۩ فإن أعرضوا، فقل أنذرتكم صاعقة مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود﴾(فصلت/1ــ13).

لقد جاء عتبة بن ربيعة ــ وهو من تعرف من كبار قريش ــ إلى رسول الله r يعرض عليه شرف الدنيا وسؤددها، إذا وافق على ترك ما يدعو إليه. فلم يزد رسول الله r على أن قرأ عليه هذه الآيات، حتى إذا ما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا، فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾، هب خائفاً مذعوراً، يناشده الرحم أن يكف عن قراءته، حتى لا يتحقق الوعيد. ثم عاد إلى من أرسلوه بوجه غير الذي جاء به[1].

ما الذي قلب حال هذا الصنديد، حتى قال لقومه مرة واحدة:

"سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم... قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه"؟[2].

---

[1]ــ انظر: تفسير النيسابوري. ج13. ص52.

[2]ــ سيرة ابن هشام. ج1. ص182ــ183.

تصور الآن نفسك في ذات المكان وذات الزمان، بل تصور ما يمكن أن يجول في خاطر رجل عاقل، يحسن قياس الأمور، والتفكر في العواقب، مثل عتبة بن ربيعة هذا ــ الذي سيقول فيه ابنه أبو حذيفة فيما بعد: "كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام"[1] ــ أكان من الغريب أن تحدثه نفسه بأن ليس هذا، الذي سمعه لتوه، سوى قرآن عربي، منزل بلسانهم ومن أجلهم؟!. أليس هذا هو القول الفصل بين الحق والباطل، المبشر بالخير، المنذر من عواقب الشر؟!.

ولئن كانت هذه هي البداية، لقد كان من حق قلب عتبة أن يسمع، خصوصاً وأن القلوب في الأصل مفطورة على الجلاء، قبل أن يغطيها حجاب الكبر والمنافع الدنيوية. فكيف إذا كان القارئ محمداً **r** الذي يعرف عنه ما يعرف، من الصدق والأمانة واستحالة الكذب!. ومن هنا فقد رأيناه يصغى تماماً، حتى "وضع يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما"[2].

يقول رسول الله **r**: "ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لِنَبيٍّ أنْ يتَغنَّى بالقُرآن"[3]. والرسول **r** الآن يتغنى بالقرآن غضاً طرياً، والله يسمع والملائكة المقربون، والوجود المشهود والمحجوب، وعتبة بن أبي ربيعة. تصور الآن هذا المشهد. ثم تخيل ما يمكن أن يكون قد جال بخاطر عتبة، وهو يتأمل في جمال الترتيل من فم رسول الله **r**!.

هكذا هو حال عتبة تقريباً.. لكن ما الذي يحدث فجأةً؟.

---

[1] ــ سيرة ابن هشام. ج2. ص194

[2] ــ سيرة ابن هشام. ج1. ص182.

[3] ــ متفق عليه من حديث أبي هريرة. انظر: جامع الأصول. ج2. الحديث رقم910.

يحدث أن هؤلاء الذين جاء القرآن بلسانهم ولخيرهم، أعرضوا ورفضوا الاستماع عناداً واستكباراً وجهلاً. ثم زادوا على ذلك بأن بارزوا هذا الأمين r، بتحديه أن يواصل دعوته فيواصلوا صدودهم ــ وكأن الصدود غدا لهم دينا! ــ فيما هو لا يدعي قدرة ولا قوة، بل يكل أمر هذا التحدي الجهول إلى الله، متسائلاً في استغراب: إن كانوا بالفعل يكفرون بالذي تخشاه السماوات والأرض، بما هما عليه من قوة وضخامة؟. فإن كانوا كذلك، فما عليهم إلا أن ينتظروا صاعقة تأخذهم، كما أخذت الذين من قبلهم ممن يعرفون.

تصور هذه الآيات الصادعة تُتلى، من فم رسول الله r، على رجل من أعرف الناس بألوان الكلام!. ألن يعرف للتو أن هذا الكلام صنف آخر من الكلام، مما لا عهد له به؟. فإذا كان هذا شاهد الحال، فكيف بشاهد النقل r، الذي يعرف عتبة أن قريشاً لا تزال تعتبره أمينها، الذي تودع عنده أموالها إلى اليوم؟. ألا ترى من ثم أن الرجل لم يعد أمامه خيار غير الإنصات والاقتناع، لولا ما ستجبره عليه مودة قومه من الاستمرار على اتخاذ الأوثان آلهةً، من دون هذا الذي قال للأرض وللسماء ائتيا طوعاً أو كرها، فقالتا أتينا طائعين؟.

وإنك إذا ما تأملت هذه الصورة، التي رسمتها الآيات لأقوال الكافرين ــ ممن بعثوا بعتبة ليفاوض رسول الله r ــ لرأيت قلوباً تحول بينها وبين الرؤية أغطية سميكة؛ ولرأيت آذاناً مصمتة تمنعها من السمع أثقال مصبوبة؛ ثم لرأيت أصحاب هذه القلوب والآذان جمعاً كثيفاً كبيراً، في صعيد واحد، يحتجب عن فرد واحد، بحجاب صفيق، أن يقتنعوا فيخسروا عنادهم!. ثم لملأ قلبك المشهد العظيم الغامض: مشهد استواء الرحمن l ،

وندائه السماوات والأرض بصوت القدرة. ثم لسمعت على الفور من ذلك ردهن الخاشع الطائع المخبت المنيب.

ألا تسمع الآن قعقعة الأرض وهي تُنصب وتُمدّ، وأطيط السماوات وهي تمتلئ بالملائكة والنجوم!.ولقد سمع ذلك عتبة بن ربيعة ولا شك. ولقد أوشك على أن يسلم طوعاً أوكرهاً، لو كان الله مريداً له الخير. ولكنه جحد بالآيات بعد أن استيقنتها نفسه، ظلماً وعتواً. فانظر كيف كان عاقبة المفسدين: قتلاً ذميماً في بدر، وعقاباً أليماً يوم القيامة!.

وأخيراً، ألا يشبه هذا شيئاً مما قرأناه عن سجود الوليد بن المغيرة، بعد سماعه سورة النجم؟.

ثالثاً: تعانق الجمال والحق:

قيل دائماً بأن جمال التصوير الفني يشفع لقبح المحتوى الأخلاقي: حيث يمكن للشاعر أن يبلغ الدرجة القصوى في الكذب، ثم لا ترى ذلك مانعاً من استحسان شعره. ولقد ظللنا دهوراً نطرب لقول عمرو بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا

مع أننا نعلم كم هو كاذب شاعر تغلب، هذا الذي يعيش في بادية لا بحر فيها، ويرأس قبيلة لا تتعدى الألف؛ إن لم تكن أقل من ذلك!.

يقول الدكتور عبد الله الغذامي:

"وإن كنا قد صرفنا قروناً من الإعجاب والاستمتاع بالشعر العربي ــ وحُق لنا أن نفعل، وهو فعلاً شعر عظيم ولا شك ـــ غيــر أن جمالياته العظيمة تخبئ قبحيات عظيمة أيضاً. وليس من شك في أن الشعر هو أهم المقومات التأسيسية للشخــصية العربيــة: ورثنــا حسناته، وورثنا سيئاته"[1].

هذا هو قصارى ما يبلغ إليه كلام البشر من البلاغة: الكذب والمبالغة فيه، إلى درجة الاستحالة، ثم اعتبار ذلك جميلاً، رغم أنه غير معقــول. وهذا هو بعض ما أدركه بلغاء العرب، حين تحداهم التنزيل: لقد أدركــوا أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثل هذا الكــلام؛ إن فـــي جمـــال تصويره أو في دقة صدقه.

فلنتأمل الآيات الآتية من سورة الأنعام:

﴿ولو ترى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا: يا ليتنَا نُرَدُّ، وَلا نُكَذِّبَ بِآَيَاتِ رَبِّنَا، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين۩ بل بدا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْــلُ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ. وإنهم لكاذبون۩ وقالوا: إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين﴾(الأنعام/27ــ29).

تأمل معي في جماليات هذا الكلام. من أي شيء جـــاءت، وإلـــى أي الأسباب تعود؟. أمن المعنى العام القائل بأن الكافرين سيواجهون مصيرهم المشؤوم، فيتمنون العود لاستئناف الأعمال؛ أم من شيء آخر يرجع إلـــى

[1] ــ النقد الثقافي. ص94.

الطريقة المخصوصة في نظم الكلمات بعضها إلى بعض، وجعل بعضها بسبب من بعض؟.

ماذا لو غيرنا كلمة هنا أو نقلناها إلى مكان آخر في نفس الآية، دون أن يخل ذلك بالمعنى الذي نعرفه[1]؟. ماذا لو قلنا: سترى حين يشاهدون النار أنهم سيقولون: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين!. أكان مثل هذا القيل سيجعلك تنظر إلى جموع المكذبين موقوفين على النار، رأي العين؛ كما هو الحال عند قراءة النظم القرآني؟. أم كنت سترى يوم القيامة قائماً ــ كما يتحدث عنه سياق الآية ــ رغم أنه لم يحدث بعدُ؟.

إن شيئاً لم يحدث سوى أن حذفنا (لو) الاستفتاحية هذه، ثم أجرينا تغييراً بسيطاً في الألفاظ اقتضته طبيعة هذا التغيير. فكان أن تبددت الجمالية، وصار الكلام عادياً مكروراً!.

أنت لا تشك أن هناك سراً أُودع في القول القرآني، فميزه عن قولنا الأرضي، بل رفعه عليه كما رُفعت السماء عن الأرض. فهل يمكن لنا أن نحاول معرفة شيء منه!.

إن (لو) هذه قد أحدثت فجوة وأنشأت توتراً: فأما التوتر فلأنها جاءت استفتاحية لم يسبقها تمهيد. وأما الفجوة فلأنها اقتضت جواباً غير موجود، وقد عهدنا كلام البشر ــ في الغالب ــ غير ذلك. وكأن السياق يريد أن يقول: لو ترى لحظة وقوفهم على النار، لرأيت عجباً من خورهم

---

[1] ــ لا يمكن لنا الادعاء بأننا نعرف مراد الله من كلامه؛ وإنما هي محاولات بشرية منقوصة.

ومسكنتهم، وقد كانوا من قبل عتاة مستكبرين. ما رأيك في هذا الإيجـــاز العظيم؟.

أرأيت كيف أثار الاستفتاح بحرف (لو) توقعاً وانتظاراً، بأن ما هو آتٍ أعظم!. ثم أرأيت كم هو موغل في التخويف أن يُحذف جواب (لو) هـــذه بدلاً من الإتيان به؟. فإذا تبقت في قلبك أثارة من شك، فتأمل الفرق بـــين القولين فيما يأتي:

1. لنفترض أن أحدَ من تقدرُ عليهم شَرَع في فعل ما تكره، فقلت له: والله لئن قمتُ إليك... ثم توقفت عن الإتمام، فلم يعرف على وجه التحديد ماهية هذا الذي تتوعده به.
2. ثم لنفترض أنك بدلاً من ذلك قلت له: والله لئن قمت إليك لأضربنك. فأتممت، وعرف ما هو نوع هذا الذي تتوعده به.

ألا ترى أنه بمجرد سماعه توعدك ــ في الحالـــة الأولـــى ــ ســـوف يذهب بفكره إلى أنواع المكروه، التي من الممكن أن تقع له: من الضرب، إلى التعليق، وكسر العظم، وربما الحرق بالنار... بل لعله يتوقـــع منـــك القتل؛ خصوصاً وهو يعرف مبلغ غضبك؟. في حين أنه ــ فـــي الحالـــة الثانية ــ سيعرف أنك لن تبلغ منه في العقاب مبلغاً أكثر من الـــضرب. ولعمري إنه لعقاب مقدور عليه!.

والآن، بعد أن ظهر لك أن حذف الجواب أبلغ، يمكن لك أن تفهم الآية بطريقة أخرى، فتقدر جواب (لو) فيما يليها من نواح الكافرين الموقوفين على النار، إذ يقولون: (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكـــون مـــن

المؤمنين). وبذا يصبح تقدير السياق: ولو ترى إذ وقفوا على النار ينوحون ويقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب.

دعنا ننتقل ــ من بعدُ ــ إلى كلمة (وُقفوا)؛ متأملين كيف جاءت فعلاً في صيغة الماضي المبني للمجهول، وما استتبع هذا المجيء من المعاني المعجزة.

أرأيت أحداً يشك في انقضاء يوم أمس؟. أنت لا تظن ذلك بالتأكيد. وإذ كان ذلك كذلك، وعلمنا أن تحقق الأمس مؤكد غير مظنون، فقد أيقنا الآن أن وقوف الكافرين على النار حادثٌ يوم القيامة لا ريب فيه، كأنه حدث بالأمس أمام أعيننا. أكان ذلك كله سيحدث لو أن جاء الفعل (وُقفوا) بصيغة المستقبل؟. أنت تعرف يقيناً أن الجواب بالسلب.

ثم لاحظ تعانق الفعلين: (ترى) و(وُقفوا). أولهما مضارع مبني للمعلوم، وفاعله النبي **r**، وثانيهما ماضٍ لما لم يُسمَّ فاعله. ومعلوم أن كل مجهول يظل غيباً مثيراً للتوقع. فكيف إذا كان الموقف موقف يوم الحساب!. لكأنه أراد سبحانه أن يقول: أنت واقف وهم موقوفون. وشتان ما بين واقف برغبته، وموقوف رغم أنفه!.

والآن دعنا نتأمل في احتمالات المعنى ــ التي ذهب إليها المفسرون ــ في هذا التركيب اللغوي: ﴿وُقفوا على النار﴾؛ لنرى:

1. أنهم يعاينونها ــ كما يقول الزجّاج ــ فهم موقوفون على أبوابها، يرون حميمها وغساقها وزقومها، ومنازلهم فيها. كل ذلك بين يدي دخولها.

2. أنهم موقوفون فوقها على الصراط، وهي تحتهم تتلمظ ويتـــأرجحون، حتى إنها لتوشك أن تخطفهم. وستفعل.
3. أنهم عرفوا حقيقتها، واستيقنت وجودَها أنفُسهم، بعد أن كـــانوا بهـــا كافرين، كما تقول: وقفت فلانا على كلام فلان: أي أعلمتـــه معنـــاه وعرّفته إياه.
4. أنهم في جوفها وهي محيطة بهم، كونها دركات بعضها فوق بعـــض. وكأن الحرف (على) قد جاء بمعنى (في).

وكلٌّ من الممكن أن يكون من مراد الله. والله أعلم بكلامه[1].

دعنا الآن نتأمل في اختلاف القراءات، وما ينتج عنـــه مـــن اتـــساع المعاني؛ في حكايته تعالى لمقولة الكافرين: ﴿يا ليتنَا نُرَدُّ، وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الملاحظة الجديرة بالاهتمام هو هذا النسق الثلاثي، الـــذي جـــاءت وفقه القراءات المختلفة:

1. ففي قراءة حفص عن عاصم المشهورة، نقرأ الآية برفع الفعل الأول (نُرَدُ) ــ كما يقتضي الأصل ــ ونصب الفعلين المضارعين (نكذبَ) و(نكونَ)؛ على تقدير سبقهما بـــ(أن) محذوفة، أو (ف) الواقعة فـــي جواب التمني. وقالوا بأن الواو قد تأتي بمعنى الفاء. وبذا يصبح تقدير السياق: (يا ليتنا نرد، بشرط هدايتنا إلى عدم التكذيب، والكـــون مـــن المؤمنين). فيكونون بذلك قد تمنوا أمنية واحدة، واشترطوا شـــرطين،

---

[1] ــ انظر: مفاتيح الغيب. ج12. ص201.

كلاهما يشبه أن يكون وعداً. أما الأمنية فردهم إلى الدنيا؛ وأما الشرطان فأن يُرزقوا الهداية وعدم التكذيب. وأنت تعلم أن هذا يشبه اشتراط طالب قرض، يقدم ما يوحي بحرصه على التسديد في الموعد. فهو إذ يطلب القرض ابتداءً يشترط على الدائن أن يسهل له شروط التسديد، كي يشترط على نفسه الوفاء، ويتمكن منه. لا ريب أن الهدف من الاشتراط هنا هو تشجيع صاحب المال على إعطاء القرض، بغض النظر عن النوايا المكنونة. فتأمل كيف يلاحق الكذب أصحابه في الآخرة!.

2. وقرأ بعض أهل الشام الآية برفع الفعلين (نُرَدُ) و(نكذبُ) ونصب الفعل (نكونَ). وبذا يكونون قد تمنوا أمرين: أن يردهم الله إلى الدنيا، وأن يرزقهم عدم التكذيب بآياته. ثم بذلوا وعداً واحداً: أن يكونوا من المؤمنين. وعلى هذا يكون تقدير السياق هو: (يا ليتنا نرد، ولا نكذب، ومن ثم نعد بأن نكون من المؤمنين).

3. أما في قراءة الحجازيين والعراقيين: فقد جاءت الآية برفع الأفعال الثلاثة: (نُرَدُ) ونكذبُ ونكونُ؛ على تقدير أنهم تمنوا على الله أن يردهم فحسب. ثم جاءت الواو ــ في (ولا نكذب)، (ونكون) ـــ على أحد الحالين الآتيين:

3/أ. إما أنها جاءت للابتداء بعد انتهاء المعنى السابق. فهي واو الاستئناف النحوي، التي لا يتعلق بها التمني الشرطي. وعلى هذا فإن ما بعدها يأتي مفيداً معنى: (يا ليتنا نردُّ، ثم نعد بأن لا نكذب بآيات ربنا، ونعد بأن نكون من المؤمنين). وبذا فقد تمنوا أمراً واحداً هو العود إلى الدنيا. ثم بذلوا وعدين: عدم التكذيب والإيمان.

3/ب. وإما أنها جاءت مفيدة للعطف: أي أن كلا الفعلين (نكذبُ) و(نكونُ) معطوف على (نردُ) المرفوع في الأصل. وبذا يأخذ الفعلان حكم الفعل الأول. وبذا فهم يتمنون ثلاث أمنيات سوياً: أن يردهم الله إلى الدنيا، وأن يرزقهم عدم التكذيب، وأن يقهرهم على الإيمان.

انظر الآن إلى أحوال المكذبين في عصرك وفي كل عصر. ثم قس تصرفاتهم في الغد ــ يوم القيامة ــ على ما ترى من تصرفاتهم اليوم؛ ألا ترى كيف يمكن تقسيمهم إلى أصنافٍ ثلاثة: صنف يطلب كل شيء ولا يعد بشيء، وهذا هو الصنف الأول (3+3/ب). وصنف يطلب طلبين ويعد وعداً واحداً، وهذا هو الصنف الثاني (2). وصنف يكتفي بطلب واحد، ويبذل وعدين (1+3/أ).

من ناحية أخرى، يمكن لنا ملاحظة أن هذا النسق الثلاثي يتكرر بصورة أخرى، عندما نتأمل في أحوال المكذبين، الذين تناولتهم هذه الآيات، في زمن التنزيل: حيث من المعروف أنهم كانوا ينقسمون إلى ثلاثة أصناف: المشركين والمنافقين وأهل الكتاب[1]. فالآية تقف هذه الأصناف الثلاثة على النار:

---

[1] ــ لا يغرنك أن يقال أن السورة نزلت بمكة، حيث لا نفاق ولا منافقين ولا أهل كتاب؛ لأن مكية السورة لا تمنع من تناولها لما سيكون، خصوصاً والعهد قريب. ألم تر أن هذه السورة نفسها قد تناولت التحريم والتحليل في الآية119 في قوله تعالى: ﴿ومالكم ألا تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه، وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾؛ مع أن التفصيل سيذكر في سورة المائدة التي ستنزل في المدنية.

1. فالمشركون الذين ما فتئوا يكذبون برسالة التوحيد ــ ويقولون: أَجعلَ الآلهةَ إلــٰهاً واحداً! ــ يتمنون أمانيّ ثلاثاً معاً: الرد إلى الــدنيا، وأن يرزقوا عدم التكذيب، وأن ينشئهم الله مؤمنين.
2. أما المنافقون ــ الذين كانوا كلما لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وكلمــا خلوا إلى شياطينهم من اليهود قالوا إنا معكم ــ فيغلب على الظن أنهم سوف يتمنون في تلك اللحظة أمرين اثنين: أن يردهم الله إلى الــدنيا، وأن يرزق قلوبهم الإيمان. ومن ثم فهم يعدون بألا يكذبوا بآيات اللهُ. وإذ لم يكن تكذيب قلوبهم معروفاً للناس؛ فربما ظنوه غير معــروف لله. وذلكم ظنهم الذي ظنوا بربهم أرداهم، فأصبحوا من الخاسرين.
3. وأما أهل الكتاب، الذين أصروا على تكذيب رسالة محمــد **r** ــ مــع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ــ فربما يتمنــون أمنيــة واحــدة فحسب: أن يُردوا. ولعل إيمانهم بأصل التوحيد هو ما يطمعهم في ألا يطلبوا من الله أكثر من ذلك، ومن ثم فهم يتعهدون بألا يكذبوا برسالة النبي الأمي **r**، وأن يكونوا من المؤمنين حقاً.

أما في العصر الحديث ــ بعد أن أُقصي الإسلام عن الحياة، وضــعف المسلمون ــ فيمكن لنا رؤية هذا النسق الثلاثي يتكرر، بصورة أخــرى: حيث من المعروف أن أحوال الكافرين، مع هذا القرآن، منقسمة إلى ثلاثة أصناف: ملحدين، ووثنيين، وأهل كتاب. وها هو التنزيل العزيــز يقفهــم على النار:

1. فأما الوثنيون ــ وقد تكشفت أمامهم حقائق جهلهم الــسابق ــ فمــن الممكن أن تكون أمانيهم ثلاثاً تامات: الأولى الرد إلى الدنيا، والثانية

أن يقادوا من أنوفهم إلى عدم تكذيب الرسل، والثالثة أن يُرزقوا الإيمان الصحيح بالله؛ ربما لأنهم سيدعون أنهم لم يعرفوا الله ابتداءً.

2. وأما الملحدون الماديون المنكرون للنبوات واليوم الآخر ــ وقد عاينوا اليوم حقيقة ما أنكروا وجوده ــ فالغالب أنه سيتمنون أمنيتين اثنتين: أن يُردوا إلى الدنيا، وأن تُرزق قلوبهم التصديق بما وراء المادة، ثم يزعمون بأنهم سوف يؤمنون بالرسالات، إذا ما تحقق لهم ما يتمنون.
3. وأما أهل الكتاب، فقد عرفت حالهم، وعلمت أنهم ربما يقتصرون على تمني أمنية واحدة هي الرد إلى الدنيا، متعهدين بعدم التكذيب وتصحيح الإيمان.

ولكنهم جميعاً كاذبون في تمنيهم ووعدهم؛ لأن جبلتهم مفطورة على الشر، ولأن نفوسهم اختارت الضلالة من قبل. ولذا فقد استحقوا أن يُضرب عن وصف حالهم السياقُ بحرف (بل)، ملتفتاً إلى من هو حيٌّ قلبُه: يسمع الكلام، ويستحق أن يُوجَه إليه الخطاب؛ قائلاً: ليس الأمر كما يتوهمون. لا تصدقهم، فقد غلب عليهم الهول، بعد أن رأوا تحقق ما كانوا به يكذبون؛ فصاروا يهرفون بما لا يعرفون، ويعدون بما لا ينفذون. ولو رددناهم إلى الدنيا، لغلبت عليهم شقوتهم، ولعادوا لما نهو عنه من التكذيب، ثم لعادوا تارة أخرى إلى قولهم البائس: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾(الأنعام/29).

أرأيت كيف تتعانق البلاغة مع الجمال: فلا شفافية المعنى توهن من جماليات التعبير، ولا جماليات الفن مجحفة بالمعنى!. وإلا فمن من البشر كان في طوقه أن يجمع بين منتهى الجمال ونصاعة الحق. وقد علمنا كيف اضطر التعبير الشعري ــ وهو أبلغ ما لدى العرب ــ إلى القبول

بأحد الأمرين: إما تسويغ الكذب في سبيل تحقيق الجمال، أو توهين الشعرية في سبيل قول الحق. وأنت لا شك قد سمعت ما اشتهر عن الأصمعي ــ مما نقله عنه الآخرون وجعلوه قانوناً في الحكم الجمالي ــ من قوله: "الشعر بابه الشر، وإذا دخل في الخير ضعف"[1]. وقوله: "أحسن الشعر أكذبه"[2]. ويشبه هذا ما قاله أبو حيان التوحيدي، من أن الشعر فن يتحكم فيه الحس لا العقل، ولذا فقد "دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة، واحتيج فيه إلى الإغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل"[3].

رابعاً: في كونه مثانيَ:

تأمل في قوله تعالى:

﴿ألمْ ترَ أنّ اللَّهَ أَنزلَ من السَّماءِ ماءً، فسلكهُ ينابيعَ في الأرضِ، ثُم يُخرجُ به زرعاً مختلفاً ألوانُهُ، ثم يَهيجُ فتراهُ مُصفرّاً، ثم يجعله حُطاماً. إنَّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب۞ أَفَمنْ شرحَ اللَّهُ صَدْرَهُ للإسلام؛ فهُو على نورٍ مِن ربِّه! فويلٌ للقاسيةِ قُلُوبُهم من ذكْرِ اللَّه؛ أولئك في ضلالٍ مُبين۞ اللهُ نزَّلَ أَحسنَ الحديثِ: كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منهُ جلودُ الذين يخشَونَ ربَّهمْ، ثم تلِينُ جلودُهم

---

[1] ــ انظر: عبد الله الغذامي. النقد الثقافي. ص95.

[2] ــ العبارة مشهورة عن الأصمعي وقد نقلها أبو بكر الباقلاني دون ذكر قائلها. انظر: إعجاز القرآن. ص173.

[3] ــ الإمتاع والمؤانسة. ص248.

وقلوبُهم إلى ذكرِ اللَّهِ. ذلك هُدى اللَّهِ يهدِي به مـــنْ يـــشاءُ. ومـــنْ يُضْلِلِ اللهُ فما لهُ مِن هاد﴾(الزمر/21ــ23).

أنت ترى ولا شك أن اللهُ نزَّلَ أَحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثاني. وإذا ما تأملت معنى وصفه سبحانه لكتابه العزيز بالمثاني، فستلاحظ بالفعل أنه في غالبه مكون من أنساق ثنائية: أي أنه يذكر الشيء وما يقابله: فإذا ذكر الجنة أتبعها بالنار، وإذا ذكر المؤمنين ثنى بالكافرين، وإذا جاء الـــسياق بالسماء تلتها الأرض، وإذا حذر من فتنة الدنيا رغّب بنعيم الآخرة....

تلك سمة مائزة من سمات هذا الكتاب العزيز. بل لعلها سمة مائزة في العديد من الخطابات الجمالية البشرية، كما أشارت إلى ذلـــك الدراســـات البنيوية الحديثة. لكن الإعجاز هنا يتبدى في سبق القرآن إلى تقرير هـــذه الحقيقة البلاغية، قبل أن يهلل البنيويون ويصفقوا جذلاً بما يظنونه اكتشافاً غير مسبوق. ومع ذلك فشتان ما بين ثنائيات الخطاب البشري، وثنائيات الخطاب القرآني!.

فإذا ما تلمسنا تجليات هذه الأنساق الثنائية، في سياق الآيات من سورة الزمر، فسوف نلاحظ الآتي:

1. الثنائية الأولى: إنزال الله الماء من السماء، يسوقه إلـــى ينـــابيع فـــي الأرض (السماء مقابل الأرض).
2. الثنائية الثانية: يهيج النبات ويعلو ويبهج، قبل أن يتحول إلى حطـــام (النبات الأخضر الحي مقابل الحطام الموت).

3. الثنائية الثالثة: من شرح الله صدره للإسلام، مقابل القاسية قلوبهم (النور مقابل الظلام).
4. الثنائية الرابعة: يهدي الله بالقرآن من يشاء، ويضل من يشاء (الهدى مقابل الضلال).
5. الثنائية الخامسة: تتكون من مجموعتين كل واحدة منها مقابل الأخرى:

5/أ. المجموعة الأولى: تتكون من السماء والماء والينابيع والزرع الهائج المصفر، وكلها لين ورقة وبهاء وجمال. وذلك مناسب لعناق النور الذي هو الإسلام، وأولى الألباب الذين بلغوا من رقة القلوب والمشاعر درجة جعلت جلودهم تلين عند سماع القرآن.

5/ب. ومقابل هذه المجموعة، نرى مجموعة ثانية مكونة من النبات ــ في حالة الموت عندما يصير حطاماً ــ وقساة القلوب الذين لا تلين مشاعرهم عند سماع القرآن. فاستحقوا أن يكونوا في ضلال مبين.

6. الثنائية السادسة: (الإنزال) مقابل (التنزيل): فإذا كانت نسبة نزول الماء من السماء إلى الله، أمراً لا يجادل فيه أحد؛ فإن نسبة القرآن إلى الله أمر يجادل فيه المعاندون. وإذ لم تكن هناك حاجة إلى تأكيد نسبة المطر إلى الله، فقد استخدم فيها السياق القرآني فعل الإنزال المخفف (أنزل)؛ في حين اقتضى إصرار المعاندين، على إنكار نسبة القرآن إلى الله، أن يعمد السياق إلى تأكيد هذه النسبة الشريفة، باستخدام

صيغة المبالغة (فعّل) من الفعل الرباعي (نزّل)، لا الثلاثي (أنــزل) كما كان الشأن مع المطر.

7. الثنائية السابعة: تحولات النبات مقابل تحولات الإنسان: فلا شك أنك عندما تتأمل في ختام الآية الأولى: (إن فــي ذلــك لــذكرى لأولــي الألباب)، فسوف تلاحظ معي أنها جاءت تعقيباً على التحولات التــي جرت للنبات ــ من الأعلى إلى الأدنى ــ من انشقاق الأرض عنــه أولاً، ثم نموه واختلاف ألوانه ثانياً، ثم اهتياجــه واكتمالــه المقتــرن بالاصفرار ثالثاً، وصولاً إلى تحوله إلى حطام؟. فلماذا جاء التعقيــب على هذه الصورة؟. وما هو الذي على أولي الألباب أن يلاحظــوه، سوى تشابه هذا مع ما يؤول إليه حالهم؟. وإلا فلمَ يختار الله ﷻ أولي الألباب ــ من دون الناس ــ فيضرب لهم الأمثال!. ألا ترى معي إلى هذا التشابه بين أحوال النبات وأحــوال الإنــسان، فــي أطوارهمــا المختلفة!. فــ"الإنسان وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى حالة اصفرار اللون وتحطم الأجزاء والأعضاء، بل إلى الموت والفناء"[1] كهذا النبات المعجب، خطوة تلو أخرى. فأين يمكن أن تجد كل مثــل هذا الإيجاز البليغ في كلام البشر!.

[1] ــ تفسير النيسابوري. ج23. ص134.

الفصل الخامس
في تذوق النص القرآني

مقدمة في التفسير:

سنتناول في هذا الفصل قصة خلق الإنسان، كما وردت في كتاب الله، مبينين ما تعلق بهذه القصة من خرافات، بلغ من انتشارها أن تصور غالبية المسلمين أنها حقيقة. وذلك لسببين:

1. أولهما: ما لهذه القصة ــ بذاتها ــ من أهمية، في بناء تصورات اعتقادية سليمة وصحيحة.
2. وثانيهما: لرفع الظلم المقصود والمتعمد الواقع على المرأة، في تصور كثير من المسلمين، نتيجة تبني التفاسير للرواية التوراتية في قصة خلق آدم وحواء عليهما السلام.

سنكتفي في البداية بعرض الصورة كما وردت في سورتي البقرة وآل عمران، تمهيداً للتفسير الكاشف.

أولاً: الآيات من سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ۝ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ۝ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ۝ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/30ــ38).

ثانياً: الآيات من سورة الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ۝ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ۝ قَالَ أَنْظِرْنِي

إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف/11ــ27).

ثالثاً: الترتيب الزمني لقصة الخلق:

عندما نتمعن في الآيات السابقة، سوف نتمكن من ترتيب الأحداث تصاعدياً، وفق نقاط يسلم بعضها إلى بعض، بالتسلسل الآتي:

1. أخبر الله الملائكة أنه سيخلق بشراً لسكنى الأرض.
2. فاستفهمت الملائكة عن سبب ذلك؛ مقررة أن من يسكن الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء.
3. فأعلم الله الملائكة بأن له في ذلك حكمة خفية لا يعلمونها.
4. ثم خلق الله آدم من طين، ونفخ فيه من روحه.
5. ثم علمه ما لم يعلم الملائكة ــ الأسماء كلها ــ وباهاهم به.
6. ثم أمرهم بالسجود له.
7. فسجدوا فوراً باستثناء إبليس الذي تمرد، بحجة أنه أفضل من آدم.
8. فطرده الله. وأسكن آدم وحواء الجنة، ونبههما إلى عداوة إبليس لهما ولذريتهما، كما منعهما من تناول ثمر شجرة بعينها، من دون باقي أشجار الجنة.
9. لكن إبليس وسوس لآدم وخدعه ــ بعد أن أقسم له أنه له ناصح أمين ــ فأكل هو وزوجه منها.
10. بعدئذ فقط اكتشف آدم وحواء أن لهما عورات مكشوفة، فشعرا بالخجل؛ ومن ثم فقد حاولا سترها بورق الجنة.
11. حاور الله آدم وعاتبه على أكله من الشجرة المحرمة، فأبدى آدم شديد ندمه واستغفر، وقبل الله توبته.

12. ثم أنزله الله وزوجه إلى الأرض، ليكدح ويتعب سعياً وراء الرزق والستر، اللذين كانا من قبل مكفولين في الجنة دون تعب.

رابعاً: إعادة القراءة بصورة جديدة:

سنقرأ الآيات الآن قراءة تعيد ترتيب السائد من مفاهيم الناس، وتعيد بيان ما لم يتم بيانه، أو ما التبس بيانه على البعض.

1. الله سبحانه وتعالى يخبرنا بأنه يحادث الملائكة ويعلمهم ويأمرهم، وهم لا يملكون غير الطاعة، وإن كانوا يتساءلون أحياناً عن الحكمة الإلـٰهية، من أمر يتجاوز إدراكهم. فالملائكة مخلوقون من قبل خلق الإنسان، كما نرى، وكذلك إبليس. فدعونا نتحدث عن الخلق الأول قبل الوصول إلى خلق آدم عليه السلام.
2. من الواضح أن الأرض كانت مخلوقة من قبل، تعلم ذلك الملائكة، على الأقل، لأنها لم تسأل عن ماهية الأرض، حين قال لها الله إنه سيجعل فيها خليفة!. أي أنها لم تقل: يا رب وما الأرض؟.
3. يظهر أن إبليس كذلك كان يعلم ما هي الأرض. نعرف ذلك من تأملنا في طبيعة خلق إبليس؛ أمن الجن هو أم من الملائكة:
4. فإن كان من الملائكة، فالنص واضح في علم الملائكة بتجربة أرضية ما، قبل خلق الإنسان: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(البقرة/30).
5. وإن كان من الجن، فقد أخبرت النصوص القرآنية بأنهم مخلوقون من قبل آدم، مما يعني ــ تقديراً ــ بأنهم ربما يعلمون بتجربة أرضية ما،

قبل خلق الإنسان: ﴿والجانُّ خلقناه من قبلُ من نار السموم﴾(الحجر/27).

خامساً: في طبيعة إبليس:

في البداية، دعونا نقل بأننا لن ننقل، في هذا الدرس القرآني، أي شيء من الإسرائيليات، التي رويت في كتب التفسير، ونُسبت إلى بعض الصحابة **y**. لن ننقل في التفسير إلا ما صح عندنا عن المعصوم **r**. من هنا، فسوف نتوقف عند كل ما توقف فيه التنزيل العزيز والسنة الصحيحة، وسنتكلم حيثما ورد ما يصح من ذلك؛ مقررين في البداية بأن إبليس من الجن، وليس من الملائكة، على وجه القطع واليقين: نقول ذلك جمعاً بين آيات التنزيل العزيز، ورفضاً لضرب بعضها ببعض. وإذا كان متشابه الآيات يدرج إبليس في جماعة الملائكة، فإن مُحكَمَهُا ينص على أنه من الجن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه﴾(الكهف/50).

من هنا يمكن القول بأن استثناء إبليس ــ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِين﴾(البقرة/34) ــ هو "استثناء متصل، لأنه كان جنيّاً واحداً بين أظهُرِ الألوف من الملائكة، مغموراً بهم، فغلبوا عليه في قوله (فسجدوا) ثم استُثني منهم استثناءَ واحدٍ منهم، ويجوز أن يكون منقطعا"[1].

---

[1] ــ تفسير الكشاف. ج1. ص254.

وفي قول جار الله[*] هذا نحتاج إلى زيادة بيان، بخصوص الفرق بين الاستثناءين: المتصل والمنقطع، تمهيداً لتوجيه قوله، وجهته التي أرادها.

الاستثناء هو إخراج بعض الجملة من بعضها بأداة من الأدوات. وأهم هذه الأدوات (إلاَّ). ولا يفسر الاستثناء بأن الأداة حلت محل الفعل (استثنى)؛ بل هو أسلوب ثابت، شأنه في ذلك شأن الأساليب الأخرى كالنداء والاستفهام، وغيرها. وبعضه متصل، وبعضه منقطع.

1. أما الاستثناء المتصل فهو الأصل، ولا يُلجأ إلى استبعاده إلا عند استحالته، ويحدث إن كان المستثنى من جنس المستثنى منه: أي كان جزءاً منه. مثاله: حضر الرجال كلهم إلا محموداً. فأنت ترى أن محموداً هو جزء من الرجال.
2. أما الاستثناء المنقطع فمجاز، ولا يأتي على الحقيقة: أي أنه نوع من التأويل الذي نلجأ إليه عند استحالة غيره، وتأتي فيه أداة الاستثناء (إلا) بمعنى (لكن)، ويحدث حين لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، مع وجود علاقة تستدعي حضور المستثنى منه. مثاله: رجع المحاربون جميعهم إلا دبابة. فالعلاقة واضحة رغم اختلاف الجنس. يقول ابن العربي: "وذلك مشهور في لسان العرب: يجعلون (إلا) بمعنى (لكن). من ذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً﴾(النساء/92)"[(1)].

---

[*] لقب الزمخشري لأنه قضى عمره في جوار الكعبة.

[1]ـ تفسير قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿إلا ما ذكيتم﴾. انظر: أحكام القرآن. القسم الثاني. ص23.

من هنا فإن قول جار الله: "هو استثناء متصل، كما هو الظاهر"، يعني أنه يرجح أن إبليس كان من جنس الحضور: أي أن جنس الحضور هو ما تناوله، وليس جنس الملائكية. من هنا فقد تناوله الخطاب بالأمر العام لكل الحاضرين. أما قوله: "ويجوز أن يكون منقطعاً"، ففيه ترجيح الاتصال، مع كون الاستثناء مقبولاً. ويعني ذلك أن (إلا) هنا تأتي بمعنى (لكن)، كما نقلنا ذلك عن ابن العربي رحمه الله.

ولتعزيز ما ذهبنا إليه ــ وخوفاً من اعتراض معترض باعتزال الزمخشري ــ يمكن نقل قول ابن كثير، المرضي عند سلفيي أهل السنة، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾. قال:

"خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار. وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله r، أنه قال: (خُلِقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم). فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة... أي أنه خُلِق من نار. كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم ــ عليه السلام ــ أصل البشر"[1].

إذن فالدلائل من القرآن على كون إبليس من الجن، لا من الملائكة، هي الآتية:

---

[1] ــ تفسير ابن كثير. ج3. ص88.

1. النص المحكم غير القابل للتأويل في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾(الكهف/50).
2. أن ابليس له ذرية ــ كما نصت الآية السابقة ــ في حين أن الملائكة لا ذرية لهم، حيث لا وجود لأنثى من جنسهم، لقوله تعالى حاكياً أقوال الكافرين باستنكار: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا. أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويُسألون﴾(الزخرف/19).
3. ما تقرر من عصمة الملائكة عن الخطأ، كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(النحل/49ــ50).
4. كون إبليس مخلوقاً من النار: فقد حُكى عنه التنزيل العزيز قوله: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾(الأعراف/12)، فيما الملائكة مخلوقون من النور ــ كما ورد في الحديث الصحيح[1] ــ والفرق كبير.

سادساً: في كيفية وسوسة إبليس لآدم من خارج الجنة:

لقد أُتخمت كتب التفسير بنقل ما لا يصح عن كيفية وسوسة إبليس لآدم، مع أن ذلك كان بعد طرد إبليس من الملأ الأعلى وسكنى آدم الجنة ــ التي هي في الملأ الأعلى ــ وذهب أغلبها إلى نقل رواية التوراة، كما

[1] ــ صحيح مسلم. حديث رقم2996

هي، بل ونسبتها إلى الرسول r أو الصحابة y. وقبل تفنيد الرواية الإسرائيلية، دعونا ننقلها كما وردت في التوراة، التي بين أيدي اليهود:

"وكانت الحية أجمل حيوانات البرية، التي خلقها الرب الإلـٰه. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة؟. فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، ولكن الله يعرف أنكما يوم تأكلان من ثمر تلك الشجرة، تنفتح أعينكما وتصيران مثل الله: تعرفان الخير والشر. ورأت المرأةُ أن الشجرةَ طيبةٌ للمأكل، وشهيةٌ للعين، وأنها باعثةٌ للفهم، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت زوجها أيضاً ــ وكان معها ــ فأكل. فانفتحت أعينهما، فعرفا أنهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مآزر"[1].

* دعونا الآن نبين وجوه اعتراضنا على نقل المفسرين لمضمون هذه الرواية:

1. هذه الرواية تقرر أن التي أغوت آدم هي الحية، لا إبليس. والمفسرون حين يرغبون في تبنيها، يجعلون إبليس اختفى داخلها، وتسلل من خلالها، إلى الجنة، التي طرده الله منها[2]!. ولعمري إن هذه لجرأة على رب العزة قَلّ نظيرها!.

---

[1] ــ سفر التكوين. 1/3ــ7.

[2] ــ تفسير الطبري. ج1. ص187ــ189.

2. هذه الرواية تخالف منطوق القرآن الحكيم، المقرر أن الذي تعــرض لوسوسة الشيطان وإغوائه كان هو آدم، لا حواء. يقول رب العــزة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾(طه/120). ومعلوم أن كل ما ورد من وسوسة إبليس للزوجين ــ بصيغة المثنى ــ يجب رده إلى هذه الآية المحكمة المفسرة، ويمكن الجمع بين الآيات بأن يقال: وسوس إبليس لآدم، فأقنع زوجه، فأكــل وأكلت معه. لأن الله لم يقل البتة: وعصت حواء ربها فغوت، خلافــاً لكل هذه المفاهيم التوراتية، التي أروثها اليهود للمسيحيين، فتبنوها.
3. من هنا فإن آدم **u** هو البادئ بالأكل من الشجرة المحرمــة، لقولــه تعالى: ﴿وعصى آدمُ ربَّ فغوى﴾(طه/121)؛ ولم يقل وعصت حواء ربها فغوت.
4. وعلى ذلك يجب تبرئة أمنا حواء، من الجريمة التاريخية التي أُلصقت بها، والقائلة بأنها هي التي أخرجت آدم من الجنة. بل إن الذي أخرجه هو إبليس، وضعفه البشري، ومعصيته الناتجة عن نسيان العهد، كما يقول في ذلك رب العزة: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسي ولم نجد له عزما﴾(طه/115).

وهكذا يبقى السؤال معلقاً عن كيفية وسوسة إبليس لآدم، وقد كان كــل منهما معزولاً عن الآخر: هذا في الجنة، وهذا خارجها؟.

ولنا أن نكتفي بتقرير أن لو كان في معرفة جواب هذا السؤال خيرٌ لنا، لأخبرنا به رب العزة في محكم التنزيل، أو لأعلم نبيه به ليعلمنــا إيــاه بحديث صحيح. أما إذْ لم يكن من ذلك شيء، فربما يكفينــا أن نعلــم أن

لإبليس سلطةً على الوسوسة لبني آدم، كما أخبرنا الحديث الصحيح عن رسول الله r أنه قال: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم"[1].

قلت: هذا في حق ابن آدم، ولا أدري إن كان ذلك ينطبق على آدم نفسه. والله أعلم بالحقيقة.

سابعاً: المعصية تودي بالبراءة الأولى:

هناك فائدة أخرى نتعلمها من تأمل قصة آدم وحواء ــ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾(الأعراف/22) ــ أن المعصية تُودي بالبراءة الأولى. لقد خلق الله الإنسان على الفطرة، بريئاً لا يعرف طريق الشر، ولا يتصور أحداً يسعى إليها. فإذا ما انحرفت فطرته، وعصي ربه، انكشف الحجاب عن فطرته وعينيه، فبدا له الشر مغوياً داعياً، ومن ورائه إبليس. ألم تر أن آدم وحواء لم يكونا يريان عورتيهما، بل لا يفكران في وجودهما أصلاً، طوال عهد الطاعة؟. فلما أن انحرفا عن الجادة، ذهبت براءتهما الأولى، وصارا يعلمان أن لهما عورتين يسوؤهما أنهما مكشوفتان!. من هنا يبدأ التعب، ويبدأ البحث عن الستر، كما سوف يبدأ البحث عن الطعام من بعد، حين ينزلان إلى الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى۞ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾(طه/117ــ119).

---

[1] ــ صحيح مسلم. حديث رقم2175.

وإن في اجتهاد آدم وزوجه، في تغطية عوراتٍ لم تكن ظاهرةً، لدليلٌ على بداية طريق الشقاء والتعب والجهد والضنك. وهل يقضي الإنـــسان عمره إلا محاولاً ذلك؟.

مسرد المصطلحات

1ــ القرآن: هو كلام الله المنَّزل بلفظه على نبيه محمد r المنقــول إلينــا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المحفوظ بين الدفتين، المبدوء بــسورة الفاتحــة والمختوم بسورة الناس.

2ــ الحديث القدسي: هو الكلام الذي نسبه رسول الله r إلى الله من غيــر القرآن. أي أن معناه من الله ولفظه من النبي.

3ــ المتواتر: الذي نقله الجمع عن الجمع، من مبدئه إلى منتهاه، بطريقة يستحيل معها تواطؤهم على الكذب.

4ــ الآحاد: هو ما لم يبلغ رواته حد التواتر مع أنه صحيح.

5ــ قراءة الآحاد: وهو ما نقل إلينا مما قيل إنه قــرآن، دون أن تتــواتر روايته.

6ــ المنقطع: هو رواية التابعي عن الرسول r ، فهو لم يدركه.

7ــ الإعجاز: تحدي الآخرين أن يأتوا بشيء أو يقوموا بعمل، مما يكون في طوق مثلهم في العادة، ثم لا يقدرون عليه، رغم توفر الرغبة لديهم في ذلك.

8ــ المعجزة: أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد نبي، تأييدا لنبوتــه، وما يُعجز البشر أن يأتوا بمثله.

9ــ الكرامة: أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد أحد أوليائه، لا لغرض التحدي، بل تأييداً للولي وإكراماً له. ويحرص الولي على ســترها عــن أعين الناس، في الغالب.

10ــ السحر: فعل يقوم به أحد البشر، ممن يستعينون بــشياطين الجــن، فيعلمونه ما يستطيعون رؤيته، بصفتهم مخلوقين من لهب. وهو في العادة مختلط بكثير من الكذب والفساد.

11ــ القرآن المكي: هو كل ما نزل من القرآن قبل الهجرة، بغض النظر عن مكان نزوله.

12ــ القرآن المدني: هو كل ما نزل من القرآن بعد الهجرة، بغض النظر عن مكان نزوله.

13ــ الصِّرفة: هي صرفُ اللهِ قلوبَ المخلوقين عن الإتيان بمثل القرآن. والقول بالصرفة منسوب إلى إبراهيم النظّام من المعتزلة.

14ــ المثاني: مكون من أنساق ثنائية: أي أنه يذكر الشيء وما يقابلــه: فإذا ذكر الجنة أتبعها بالنار، وإذا ذكر المؤمنين ثنى بالكافرين، وإذا ذكر السماء ذكر بعدها الأرض... وهكذا.

الملاحق

ملحق رقم 1:

الوليد وحادثة المصحف

"قال: وأخبرنا عمرو بن أبيه، عن يحيى بن سليم قال:
دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف. فلما فتحه وافق ورقة فيها: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وخابَ كُلُّ جبَّارٍ عَنِيد۝ مِنْ ورائهِ جهنمُ ويُسقى مِن ماءٍ صدِيد﴾. فقال: أسجعاً سجعاً!. علقوه. ثم أخذ القوس والنبل، فرماه حتى مزقه. ثم قال:

أَتُوْعِدُ كلَّ جبارٍ عنيدٍ!　　　فها أنا ذاك جبارٌ عنيدُ
إذا لا قيتَ ربك يوم حشرٍ　　　فقل لله: مزقني الوليدُ.

قال: فما لبث بعد ذلك، إلا يسيراً، حتى قُتل"[1].

ملحق رقم 2:

ترجمة ابن الراوندي المتوفي عام298هـ:

"أحد مشاهير الزنادقة. كان أبوه يهوديا فأظهر الإسلام. ويقال إنـــه [أي الأب] حرف التوراة، كما عادى ابنه [ابن الراونـــدي] القــرآن

---

[1]ـ الأغاني. ج7. ص59-60.

بالقرآن، وألحد فيه، وصنف كتابا في الرد على القرآن سماه (الدامغ) وكتابا في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه (الزمردة) وكتابا يقال له (التاج) في معنى ذلك. وله كتاب (الفريد) وكتاب (إمامة المفضول الفاضل). وقد انتصب للرد على كتبه هذه جماعة، منهم الشيخ أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ــ شيخ المعتزلة في زمانه ــ وقد أجاد في ذلك، وكذلك ولده أبو هاشم عبد السلام بن أبى على. قال الشيخ أبو علي [الجبائي]: (قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي، فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء). قال: (وقد وضع كتابا في قدم العالم، ونفى الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية، والرد على أهل التوحيد. ووضع كتابا في الرد على محمد رسول الله **r** في سبعة عشر موضعا، ونسبه إلى الكذب ــ يعنى النبي **r** ــ وطعن على القرآن، ووضع كتبا لليهود والنصارى، وفضل دينهم على المسلمين والإسلام، يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد **r**، إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام). نقل ذلك ابن الجوزي عنه: وقد أورد ابن الجوزي في منتظمه طرفا من كلامه وزندقته، وطعنه على الآيات والشريعة. ورد عليه في ذلك ــ وهو أقل وأخس وأذل من أن يلتفت إليه، وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وتمويهه ــ وقد أسند إليه [أي أن ابن الجوزي أسند إلى ابن الراوندي] حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر، منها ما هو صحيح عنه، ومنها ما هو مفتعل عليه، ممن هو مثله وعلى طريقته ومسلكه، في الكفر والتستر في المسخرة، يخرجونها في قوالب مسخرة، وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة. وهذا كثير موجود فيمن يدعى الإسلام

وهو منافق: يتمسخرون بالرسول r ودينه وكتابه. وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ولئن سألتهم ليقولنك إنما كنا نخوض ونلعب، قل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون!. لا تعتذروا، قد كفرتم بعد إيمانكم﴾. الآية"[1].

ملحق رقم 3:

استشهاد العديد من حفظة القرآن يوم اليمامة:

"وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة. فقالوا: تخشى علينا من نفسك شيئاً؟. فقال: (بئس حامل القرآن أنا إذن). وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس. وكانت العرب على راياتها... وخرج أهل اليمامة مع مسيلمة... فاقتتل الناس قتالا شديداً، حتى انهزم المسلمون... ثم إن المسلمين تداعوا، فقال ثابت بن قيس: (بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين. اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء ــ يعني أهل اليمامة ــ وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء: يعني المسلمين). ثم جالد بسيفه حتى قتل. وقال زيد بن الخطاب حين انكشف الناس عن رحالهم: (لا تحوّز بعد الرحال). ثم قاتل حتى قُتل. ثم قام البراء بن مالك، أخو أنس بن مالك ــ وكان إذا حضر الحرب أخذته العرواء، حتى يقعد عليه الرجال، ثم ينتفض تحتهم حتى يبول في سراويله، فإذا بال يثور كما يثور الأسد ــ فلما رأى ما صنع الناس أخذه الذي كان يأخذه، حتى قعد عليه الرجال، فلما بال وثب فقال: (أين يا معشر المسلمين، أنا البراء بن

---

[1]- البداية والنهاية. ج11. ص112-113.

مالك، هلم إليّ). وفاءت فئة من الناس فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله... ثم زحف المسلمون حتى ألجأوهم إلى الحديقة ــ حديقة الموت ــ وفيها عدو الله مسيلمة الكذاب. فقال البراء: (يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة). فقال الناس: (لا تفعل يا براء). فقال: (والله لتطرحني عليهم فيها). فاحتُمل حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار، اقتحم، فقاتلهم عن باب الحديقة حتى فتحها للمسلمين. ودخل المسلمون عليهم فيها، فاقتتلوا حتى قتل الله مسيلمة عدو الله...

وتذامر زيد وخالد وأبو حذيفة [أي شجع بعضهم بعضاً] وتكلم الناس... فقال زيد: (لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي. عضوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً). ففعلوا... وقُتل زيد رحمه الله. وتكلم ثابت فقال: (يا معشر المسلمين، أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان. والعزة لله ولرسوله ولأحزابه. أروني كما أريكم). ثم جلد فيهم حتى حازهم. وقال أبو حذيفة: (يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال). وحمل فحازهم حتى أنفذهم. وأصيب رحمه الله. وحمل خالد بن الوليد، وقال لحماته: (لا أوتين من خلفي)... عن سالم بن عبد الله قال: لما أعطي سالم الراية يومئذ قال: (ما أعلمني لأي شيء أعطيتمونيها. قلتم: صاحب قرآن، وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات؟). قالوا: أجل. وقالوا: فانظر كيف تكون. فقال: (بئس والله حامل القرآن أنا إن لم أثبت). صاحب الراية قبله عبد الله بن حفص بن غانم...

وتفانى المسلمون كلهم. وتكلم رجال من أصحاب رسول الله r. وقال زيد بن الخطاب: (والله لا أتكلم أو أظفر أو أقتل. واصنعوا كما أصنع أنا). فحمل وحمل أصحابه. وقال ثابت بن قيس: (بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين هكذا. عني حتى أريكم الجلاد). وقتل زيد بن الخطاب رحمه الله... فما رئي يوم كان أحدَّ ولا أعظم نكاية مما رئي يومئذ... إلا أن المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية... وكانت يومئذ سجالا: إنما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين. فقال خالد: (أيها الناس امتازوا، لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى)... حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز، وانتمى، وقال: (أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد)... فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله... وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون. قال سهل: ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاثمائة من هؤلاء، وثلاثمائة من هؤلاء: ستمائة أو يزيدون"[1].

ملحق رقم 4:

إرضاء الله للمظلوم حتى يعفو عن ظالمه

"عن أنس بن مالك أنه قال: بينا رسول الله r جالس. إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه. فقال عمر t : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟. فقال: رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة،

1- تاريخ الطبري. ج2. الصفحات: 278، 279، 281، 283.

تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب، خذ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته. قال: يا رب، لم يبق من حسناتي شيء. قال: رب، فليحمل عني من أوزاري. قال: وفاضت عينا رسول الله r بالبكاء، ثم قال: إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم. فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك، فانظر في الجنان. فرفع رأسه، فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ!. لأي نبي هذا؟. لأي صديق هذا؟. لأي شهيد هذا؟. قال: هذا لمن أعطى الثمن. قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟. قال: أنت تملكه. قال: ماذا يا رب؟. قال: تعفو عن أخيك. قال: يا رب، فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة. ثم قال رسول الله r: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم؛ فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة"[1].

[1]- نقله ابن كثير في تفسيره من مسند الحافظ أبي يعلى. ج2. ص285.

المصادر والمراجع

■ القرآن الكريم.

■ الكتاب المقدس. ط1. جمعية الكتاب المقدس في لبنان. بيروت. 1993.

1ــ ابن الأثير الجزري: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد. جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. الأجزاء: 2، 4، 5، 7، 8، 10، 11. مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان. بيروت. 1972.

2ــ ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله. أحكام القرآن. ط3. مراجعة وتخريج محمد عبد القادر عطا. القسم الثاني. دار الكتب العلمية. بيروت. 2003.

3ــ ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق شعيب الأرنؤوط. ط2. ج14. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1993.

4ــ ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. المحلى. تحقيق أحمد محمد شاكر. ج1. دار التراث. القاهرة. دون تاريخ.

5ــ ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي. تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ط2. تحقيق وتعليق

مجموعة من العلمـــاء. المجلـــدان: 1، 8. مطبوعـــات وزارة الأوقـــاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. الدوحة. 2007.

6ــ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير). الأجـــزاء: 2، 3، 4. دار التراث العربي. القاهرة. دون تاريخ.

7ــ ابن كثير: الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثيـــر القرشـــي الدمشقي. البداية والنهاية. الجزآن: 7، 11. دار الفكر. بيروت. 1978.

8ــ ابن منظور: العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكـــرم ابـــن منظور الأفريقي المصري. لسان العـــرب. ج5. دار الفكـــر. بيـــروت. 1990.

9ــ ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري. السيرة النبويـــة (سيرة ابن هشام). ط1. مراجعة الشيخ محمد بيـــومي. الجـــزآن: 1، 2. مكتبة الإيمان. المنصورة. 1995.

10ــ أبو السعود: محمد بن محمد العمادي. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود). الجزآن: 1، 8. دار إحيـــاء التـــراث العربي. بيروت. دون تاريخ.

11ــ أبو الفرج الأصفهاني. الأغاني. ط1. شرحه وكتب هوامشه عبـــد علي مهنا. الجزآن: 7، 15. دار الفكر. بيروت. 1986.

12ــ أبو بكر الجصاص: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي. أحكـــام القرآن. ط1. تحقيق عبد السلام محمد شاهين. ج1. دار الكتب العلميـــة. بيروت. 1994.

13ــ أبو حيان التوحيدي: علي بن محمد بن العباس. الإمتاع والمؤانسة. ط1. دار الكتب العلمية. بيروت. 1997.

14ــ الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب. إعجاز القرآن. تحقيق الـــسيد أحمد صقر. سلسلة ذخائر العرب. دار المعارف بمصر. القـــاهرة. دون تاريخ.

15ــ خالد محمد خالد. رجال حول الرسول. ط2. دار الكتاب العربـــي. بيروت. 1973.

16ــ الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان. تذكرة الحفـــاظ. ط1. دراســـة وتحقيق زكريا عميرات. ج1. دار الكتب العلمية. بيروت. 1998.

17ــ الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. مختار الصحاح. مكتبة لبنان. بيروت. 1986.

18ــ الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. الكـــشاف عـــن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فـــي وجـــوه التأويـــل (تفـــسير الكشاف). ط1. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمـــد معـــوض والدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي. الأجزاء: 1، 2، 5، 6. مكتبة العبيكان. الرياض. 1988.

19ــ سيد قطب. التصوير الفني في القرآن. ط8. دار المعارف. القاهرة. دون تاريخ.

20ــ سيد قطب. في ظلال القرآن. ط10. الجزآن: 2، 6. دار الشروق. بيروت والقاهرة. 1982.

21ــ السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكــر. معتــرك الأقران في إعجاز القرآن. جزآن. ط1. تحقيق أحمد شمس الــدين. دار الكتب العلمية. بيروت. 1988.

22ــ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك (تــاريخ الطبري). ج2. دار الكتب العلمية. بيروت. 1997.

23ــ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري). الأجزاء: 1، 7، 29. دار المعرفة. بيروت. 1980.

24ــ عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. قرأه وعلق عليــه محمــود محمد شاكر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبــة الأســرة. مهرجــان القراءة للجميع. سلسلة الأعمال الفكرية. القاهرة. 2000.

25ــ عبد الله الغذامي. النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربيــة. ط1. المركز الثقافي العربي. بيروت والدار البيضاء. 2000.

26ــ عبد الوهاب خلاف. علم أصول الفقه. ط14. دار القلم. الكويــت. 1981.

27ــ الفخر الرازي: الإمام محمد فخر الدين ابن العلامة ضـــياء الـــدين عمر المشتهر بخطيب الري. تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب). ط1. الجزآن: 2، 12، 32. دار الفكر. بيروت. 1981.

28ــ القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكـــام القرآن (تفسير القرطبي). ط1. ج1. مكتبة السلام العالمية ودار الثقافـــة. القاهرة. 1981.

29ــ المتقي الهندي: علي بن حسام الدين. كنز العمال في سنن الأقـــوال والأفعال. ج10. مؤسسة الرسالة. بيروت. 1989.

30ــ مجموعة من المؤلفين. المعجم الوسيط. دار الدعوة. استانبول. دون تاريخ.

31ــ مجموعة من المؤلفين. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط3. تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام. دار المعارف. سلسلة ذخائر العرب. القاهرة. 1976.

32ــ محمد الأنطاكي. المنهاج في القواعد والإعراب. ط8. دار الـــشرق العربي. بيروت وحلب. دون تاريخ.

33ــ محمد رشيد بن علي رضا. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنـــار). ج1. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1990.

34ــ محمد عبد الله دراز. النبأ العظيم: نظرات جديدة في القــرآن. ط2. دار القلم. الكويت. 1970.

35ــ محمود الألوسي: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمــود الألوســي البغدادي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفــسير الألوسي). الأجزاء: 1، 2، 24. دار إحياء التراث العربي. بيروت. دون تاريخ.

36ــ محيي الدين الدرويش. إعراب القرآن الكريم وبيانه. ط7. المجلــد الأول. اليمامة ودار ابن كثير. دمشق. 1999.

37ــ محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. ط2. الأسفار: 2، 5، 6، 11، 13. تحقيق عثمان يحيى. تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور. المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع معهد الدراسات العليــا بالــسوربون. الهيئــة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1985.

38ــ مسلم بن الحجاج: الإمام الحافظ أبو الحسين القشيري النيــسابوري. صحيح مسلم. مجلدان. ط1. دار طيبة. الرياض. 2006.

39ــ النووي: الإمام الحافظ محيي الدين أبو زكريا. صحيح مسلم بشرح النووي. ج4. دار الفكر. بيروت. 1981.

40ــ النيسابوري: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي. غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري). ط1. تحقيق الشيخ زكريــا عميران. الأجزاء: 1، 7، 13، 23. دار الكتب العلمية. بيروت. 1996.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	7
الفصل الأول: القرآن والإعجاز	11
أولاً: القرآن: محاولة للتعريف	11
ثانياً: مصطلح إعجاز القرآن	14
ثالثاً: الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر	16
رابعاً: مراتب الإعجاز	17
خامساً: شروط التحدي	19
سادساً: رد شبهة	20
سابعاً: موضوع الإعجاز	25
سابعاً/1: القرآن وخبر المغيبات	26
سابعاً/2: القرآن والحقائق العلمية	29
سابعاً/3: القرآن والتشريع	31
سابعاً/4: القرآن والصِّرفة	34
سابعاً/5: الإعجاز البياني	36
الفصل الثاني: إعجاز القرآن في مجموعه	41
أولاً: في جمعه وترتيبه	41
ثانياً: في حفظه من التبديل والتغيير	46
الفصل الثالث: في إعجاز السورة الواحدة	49
أولاً: في سر الإعجاز	49

الموضوع	الصفحة
ثانياً: كل القرآن في أم القرآن	50
ثالثاً: سورة الكوثر: جماليات الموقع والمعنى	65
ثالثاً/1: المفردات	65
ثالثاً/2: جماليات الترتيب	66
ثالثاً/2ـــ1: علاقة السورة بما قبلها	66
ثالثاً/2ـــ2: علاقة السورة بما بعدها	68
ثالثاً/3: في بلاغة قوله: إنّا أعطيناك	70
ثالثاً/4: لطائف الإشارات	72
ثالثاً/5: في لطيف قوله: **(إن شانئك هو الأبتر)**	74
رابعاً: ليس في القرآن حرف زائد	76
رابعاً/1: المثال الأول	77
رابعاً/2: المثال الثاني	81
رابعاً/3: المثال الثالث	84
خامساً: علاقة اللفظ بباقي الألفاظ	88
الفصل الرابع: في إعجاز الموضوع الواحد	93
أولاً: في كشف أحوال المنافقين	93
أولاً/1: المثال الأول من سورة البقرة	93
أولاً/2: المثال الثاني من سورة الحشر	96
أولاً/3: المثال الثالث من سورة المنافقون	100
أولاً/3ـــ أ: بين الشهادة والعلم	100
أولاً/3ـــ ب: في شدة حاجة الكاذب إلى زيادة التوكيد:	102

الموضوع	الصفحة
ثانياً: الصورة في القرآن الكريم	103
ثانياً/1: بين كلب وكلب	103
ثانياً/1ــ أ: المثال الأول من سورة الأعراف	103
ثانياً/1ــ ب: المثال الثاني من سورة الكهف	105
ثانياً/1ــ ج: المثال الثالث من سورة المائدة	106
ثانياً/2: سجود الكفار	107
ثانياً/3: جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم	112
ثالثاً: تعانق الجمال والحق	116
رابعاً: في كونه مثاني	126
الفصل الخامس: في تذوق النص القرآني	131
مقدمة في التفسير	131
أولاً: الآيات من سورة البقرة	132
ثانياً: الآيات من سورة الأعراف	132
ثالثاً: الترتيب الزمني لقصة الخلق	134
رابعاً: إعادة القراءة بصورة جديدة	135
خامساً: في طبيعة إبليس	136
سادساً: في كيفية وسوسة إبليس لآدم من خارج الجنة	139
سابعاً: المعصية تودي بالبراءة الأولى	142
مسرد المصطلحات	145
الملاحق	147
المصادر والمراجع	153